دروس (٩/ ...-...)

سورة رقم ٥٧

تفسير سورة الحديد

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ
وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ
مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى
عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا
وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ
مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ
الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ
وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ
وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ
يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ
مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ
﴿٢٩﴾

الدرس الأول

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَدِيدِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنِي بَحِيرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عن بن أَبِي بِلَالٍ، عَنْ عِرْبَاض بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ الْمُسَبِّحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ، وَقَالَ: «إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ».

وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ طُرُقٍ عَنْ بَقِيَّةَ، بِهِ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ أَبِي السَّرْحِ، عَنِ ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ بَحِيرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ... فَذَكَرَهُ مُرْسَلا لَمْ يَذْكُرْ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي بِلَالٍ، وَلَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ

وَالْآيَةُ الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي الْحَدِيثِ هِيَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- قَوْلُهُ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ وَبِهِ الثِّقَةُ وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوات وَالْأَرْضِ أَيْ: مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الْإِسْرَاءِ].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَيِ: الَّذِي قَدْ خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَيْ: هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ فَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ أَيْ: مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وَهٰذه الْآيَةُ هِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي حَدِيثِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ: أَنَّهَا أَفْضَلُ من ألف آية.

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ حَدَّثَنَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ-يَعْنِي ابْنَ عَمَّارٍ- حَدَّثَنَا أَبُو زُمَيْل قَالَ: سألت بن عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَاللهِ لَا أَتَكَلَّمُ بِهِ قَالَ: فَقَالَ لِي أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟ قَالَ -وَضَحِكَ -قَالَ: مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ قَالَ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الْآيَةَ [يُونُس:٩٤] قَالَ: وَقَالَ لِي: إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

وَقَدِ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي هٰذه الْآيَةِ وَأَقْوَالُهُمْ عَلَىٰ نَحْوٍ مِنْ بِضْعَةَ عَشَرَ قَوْلًا.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ يَحْيَىٰ: الظَّاهِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَالْبَاطِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا

قَالَ شَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمِزِّيُّ: يَحْيَىٰ هٰذا هُوَ بْنُ زِيَادٍ الْفَرَّاءُ، لَهُ كِتَابٌ سَمَّاهُ: «مَعَانِي الْقُرْآنِ».

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَيَّاشٍ، عَنْ سُهيل بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ النَّوْمِ: «اللَّهُمَّ، رب السموات السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ. اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»: حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ سُهَيل قَالَ: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ: أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَىٰ شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، ربّ السَّمٰوات وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ».

وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَدْ رَوَىٰ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَىٰ الْمَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ نَحْوَ هٰذا، فَقَالَ حَدَّثَنَا عُقْبَةُ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، حَدَّثَنَا السَّرِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ

اللهِ ﷺ يَأْمُرُ بِفِرَاشِهِ فَيُفْرَشُ لَهُ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، فَإِذَا أَوَىٰ إِلَيْهِ تَوَسَّدَ كَفَّهُ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ هَمَسَ -مَا يُدْرَىٰ مَا يَقُولُ- فَإِذَا كَانَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ رفع صوته فقال: «اللَّهمَّ، ربّ السَّمٰوات السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، إِلَـهَ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللَّهُمَّ، أَنْتَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»

السَّرِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ هٰذا ابْنُ عَمِّ الشَّعْبِيِّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ أَبُو عِيسَىٰ التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هٰذه الْآيَةِ: حَدَّثَنَا عبدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ -الْمَعْنَىٰ وَاحِدٌ- قَالُوا: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: حَدَّثَ الْحَسَنُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ وَأَصْحَابُهُ، إِذْ أَتَىٰ عَلَيْهِمْ سَحَاب فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هٰذا؟ ». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هٰذا العَنَان، هٰذه رَوَايا الْأَرْضِ تَسُوقُهُ إِلَىٰ قَوْمٍ لَا يَشْكُرُونَهُ وَلَا يَدْعُونه». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ «فَإِنَّهَا الرَّقِيعُ، سَقْفٌ مَحْفُوظٌ، وَمَوْجٌ مَكْفُوفٌ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟ » قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: « فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ سَمَاءٌ بُعدُ مَا بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خمسمائة سنة -حتىٰ عدَّ سبع سماوات- مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟ » قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: « فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشَ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ بُعدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءَيْنِ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَكُمْ؟». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا الْأَرْضُ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَ ذَلِكَ؟ ». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ تَحْتَهَا أَرْضًا أُخْرَىٰ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ -حَتَّىٰ عدَّ سَبْعَ أَرَضِينَ- بَيْنَ كُلِّ أَرْضَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ». ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّكُمْ دَلَيتم بِحَبْلٍ إِلَىٰ الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ لَهَبَطَ عَلَىٰ اللهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هٰذا الْوَجْهِ، ويُروىٰ عَنْ أَيُّوبَ وَيُونُسَ -يَعْنِي بْنَ عُبَيْدٍ- وَعَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ قَالُوا: لَمْ يَسْمَعِ الْحَسَنُ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَفَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هٰذا الْحَدِيثَ فَقَالُوا: إِنَّمَا هَبَطَ عَلَىٰ علْم اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَعِلْمُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَهُوَ عَلَىٰ الْعَرْشِ، كَمَا وَصَفَ فِي كِتَابِهِ. انْتَهَىٰ كَلَامُهُ.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

وَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ هٰذا الْحَدِيثَ عَنْ سُرَيْجٍ، عَنِ الْحَكَمُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرَهُ، وَعِنْدَهُ بُعدُ مَا بَيْنَ الأَرْضين مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ، وَقَالَ: «لَوْ دَلَّيْتُمْ أَحَدَكُمْ بِحَبْلٍ إِلَىٰ الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ السَّابِعَةِ لَهَبَطَ عَلَىٰ اللهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

وَرَوَاهُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْبَزَّارُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَلَمْ يَذْكُرِ بن أَبِي حَاتِمٍ آخِرَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: «لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ»، وَإِنَّمَا قَالَ: «حَتَّىٰ عَدّ سَبْعَ أَرَضِينَ بَيْنَ كُلِّ أَرْضَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ»، ثُمَّ تَلَا ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

وَقَالَ الْبَزَّارُ: لَمْ يَرْوِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا أبو هريرة.

ورواه بن جَرِيرٍ، عَنْ بِشْرٍ، عَنْ يَزِيدَ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ قَتَادَةَ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ إِذْ ثَارَ عَلَيْهِمْ سَحَابٌ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هٰذا؟» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ مِثْلَ سِيَاقِ التِّرْمِذِيِّ سَوَاءً، إِلَّا أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ هٰذا الْوَجْهِ، وَلَعَلَّ هٰذا هُوَ الْمَحْفُوظُ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍ الْغِفَارِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، رَوَاهُ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» وَلَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ، وَفِي مَتْنِهِ غَرَابَةٌ وَنَكَارَةٌ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاقِ:١٢] حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، حَدَّثَنَا ابْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: الْتَقَىٰ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَرْسَلَنِي رَبِّي، عَزَّوَجَلَّ، مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَتَرَكْتُهُ ثَمّ، قَالَ الْآخَرُ: أَرْسَلَنِي رَبِّي، عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ وَتَرَكْتُهُ ثَمّ، قَالَ الْآخَرُ: أَرْسَلَنِي رَبِّي مِنَ الْمَشْرِقِ وَتَرَكْتُهُ ثَمّ، قَالَ الْآخَرُ: أَرْسَلَنِي رَبِّي مِنَ الْمَغْرِبِ وَتَرَكْتُهُ ثَمّ، وَهٰذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا، وَقَدْ يَكُونُ الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ موقوفًا علىٰ قتادة كما روي هاهنا من قوله، والله أعلم.(١)

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

---

(١) الأحاديث الأخيرة : الحديث الحسن عن أبي هريرة والذي تلاه كلها ضعيفة، وفيها أيضا نكارة في لفظها في إثبات البعد ما بين أرض وأرش، وكذلك لفظ (لَوْ أَنَّكُمْ دَلَيتم بِحَبْلٍ إِلَىٰ الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ لَهَبَطَ عَلَىٰ اللهِ) كل هٰذه اللفاظ منكرة ولا تصح، مع أن هٰذا اللفظ الأخير يمكن أن يحمل علىٰ لفظ صحيح، كما سيأتي إن شاء الله.

الحمد لله وحده، وصلىٰ الله وسلم علىٰ من لا نبي بعده.

وبعد؛ فهٰذه فاتحة سورة الحديد، وهي سورة عظيمة جليلة؛ لما اشتملت عليه من حق الله جل وعلا ووصفه ونعته وأسمائه وصفاته، وما اشتملت عليه من بيان حال صفوة الخلق، وهم الأنبياء والصحابة رضوان الله عليهم، وما كانت عليه حالهم في نصرة محمد عليه الصلاة والسلام، وحال المنافقين الذين خالطوهم في الدنيا، وما تؤول إليه حالهم في الآخرة، وبيان ما به تكون حياة القلب من أن يعمر بذكر الله جل وعلا، وأن يقبل العبد عليه ﷻ، وأن يسارع في الخيرات، وأن يُستسلم لقضائه، ويُتقرب إليه بالإنفاق والمسارعة في الخيرات، وهٰذه الأمور يأتي بيانها إن شاء الله تعالىٰ في مواضعها، وصلة ذلك بموضوع السورة إن شاء الله.

أما ما تقدم به ابن كثير هٰذا التفسير من أن المسبّحات فيها آية أفضل من ألف آية، وأنه استظهر أنها قوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾؛ فهٰذا من جهة دلالة المعنىٰ، يعني أن هٰذه الآية شملت وصف الله جل وعلا في أبديته وأزليته وفي وصفه جل وعلا بعلوه ﷻ، وفي بُطُونه جل جلاله، وهٰذا مما يستغرق الزمان والمكان، وهٰذا ترجع إليه الأسماء والصفات المتعلقة الآثار بما بين الأزلية والأبدية، والمتعلقة الآثار في الأمكنة ما بين العلوِّ والبطون؛ لأن حقيقة الأسماء والصفات أنها تظهر بتعلقها بأثرها أو بآثارها، فالأسماء أثر الاسم وأثر الصفة في خلق الله جل وعلا، لهٰذا جاء هٰذان الاسمان: الأول والآخر للأزلية والأبدية، وهٰذا فيه امتداد الزمان من اللا بداية إلىٰ اللا نهاية إن صح هٰذا الاستعمال، أو من الأولية إلىٰ الأبدية، أو من الأزلية إلىٰ الأبدية، المعنىٰ واحد، وهٰذا من جهة امتداد الزمان.

علىٰ هٰذا النحو فإن ما فيه من آثار خلق الله جل وعلا وما تتعلق به من الأسماء والصفات فإنه يشمل جُل الأسماء والصفات.

ثم إذا نظرتَ إلىٰ الظهور والبطون المتعلق بعلوه جل وعلا فوق كل شيء علو الذات وأنه ﷻ هو الباطن كما سيأتي بيانه وهو بطون الصفات، فإن هٰذا من جهة تعلق الآثار به يشمل بقية الأسماء والصفات، أو يشمل أيضًا جُل الأسماء والصفات، وهٰذا يعني أن هٰذه الآية أشمل من الآيات في آخر سورة الحشر في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢﴾ [الحشر] إلىٰ

آخر السورة، هٰذا تقدير لما فهمه الحافظ ابن كثير وما فهمه غيره من أهل العلم في أن هٰذه الآية لها فضلٌ علىٰ ألف آية كما ذكر.

وهٰذا التفضيل أو التحديد بأن هٰذه الآية هي المقصودة يحتاج إلىٰ دليلٍ آخر يفضّل هٰذه الآية علىٰ غيرها، ولا أستحضر دليلًا، ولم أطلع علىٰ دليلٍ واضح في هٰذه الآية التي تفضل ألف آية. وكلام ابن كثير وجيه؛ قاله غيره من أهل العلم من جهة فَهم وجه اختياره هٰذه الآية.

قال الله جل وعلا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ التسبيح هو التنزيه والإبعاد عن كل نقص وعيب وشَين، وهٰذا هو معناه في اللغة، وهو أيضًا معناه في استعمال القرآن، فيكون معنىٰ ﴿سَبَّحَ﴾ أي: نزه الله عن كل عيب ونقص وشين.

والتسبيح الذي هو التنزيه والإبعاد جاء في القرآن متوجهًا إلىٰ خمسة أشياء:

الأول: تنزيه الله جل وعلا وإبعاده ﷻ عن النقص والعيب في ربوبيته جل جلاله، منظورًا في ذلك إلىٰ جميع أفرادها.

الثاني: تنزيهه ﷻ عن كل نقص وعيب وشين في استحقاقه للإلهية وحده ﷻ.

الثالث: تنزيهه جل جلاله وتقدست أسماؤه عن كل عيب ونقص وشين في أسمائه وصفاته.

الرابع: تنزيهه جل وعلا وإبعاده عن كل نقص وعيب وشين في أمره وشرعه وما أنزل من كتاب، فلا نقص في أمره ولا شين ولا عيب ولا نقص في كتابه، ولا شين ولا عيب ولا نقص في شرعه، ولا شين ولا عيب بوجه من الوجوه؛ لأنه من عنده جل وعلا، فهو ذو الكمال المطلق من جميع جهاته ووجوهه.

الخامس: تنزيهه جل وعلا عن كل نقص وعيبٍ وشين فيما خلق وكون، يعني في أمره الكوني وخلقه وقدره الذي قدر به الأشياء جميعًا، وما تكون عليه وما يجري لها، فهو ﷻ ذو الكمال المطلق، وهو جل وعلا ذو الرفعة فيما يتصف به، والعلو فيما يضاف إليه جل جلاله.

قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وهي في الأصل: سبحَ اللهَ، يعني يتعدىٰ الفعل بنفسه، وكذلك الإضافة: سبحان الله، وجاءت اللام هنا تأكيدًا للاستحقاق، يعني: سبح ما في السَّمٰوات والأرض تسبيحًا مستحقًّا لله، فاللام هنا لام الاستحقاق كالتي في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، التسبيحُ والحمد في القرآن يجيء معهما اللام لأجل الاستحقاق المستقر الكائن، كما وصف الله جل وعلا.

قال: ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ (ما) هنا بمعنىٰ (الذي)؛ أي: الذي في السَّمٰوات والأرض. وهٰذا يشمل ما جرىٰ عليه التكليف وما لم يجرِ عليه التكليف، وهٰذا كما قال جل وعلا في آية الإسراء: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ [الإسراء: ٤٤] فقوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ فيه عموم، وهٰذا نص في العموم، يعني أنه لا شيء مخلوق إلا وهو يسبح بحمد الله جل وعلا، فالملائكة لهم زَجَل بالتسبيح علىٰ كل حال وأوان، ومخلوقات الله من السَّمٰوات والأرض والجبال والشجر والدواب، جميع المخلوقات والأصناف، من المتحركات ومن الجمادات، ومن المكلفين وغير المكلفين؛ جميعهم يسبح بحمد الله جل وعلا، يعني ينزه الله عن كل نقص، ويثبت له الكمالات، إلا الكفار؛ فإن تسبيحهم الاضطراري هٰذا بغير اختيارهم، وإنما هو تسبيح ما جعل الله جل وعلا أجسادهم باعتبارها مخلوقة عليه، وأما تسبيحهم الاختياري فإنهم لا يسبحون، وإنما التسبيح لأجزاء أبدانهم، فتدخل في العموم، ويكون تسبيحها اضطراريًّا، لا يشعر به الكافر ولا يختاره.

وهٰذا التسبيح هل هو بلسان المقال، أم هو بلسان الحال، أم هما معًا ؟

الصحيح الذي عليه المحققون من أهل السنة أن هٰذا التسبيح بلسان المقال وبلسان الحال، وهٰذا يختلف باختلاف ما خلق الله جل وعلا، وأن حقيقة هٰذا التسبيح هو التنزيه والإبعاد عن كل نقص وشين في الأمور المذكورة سالفًا، وليس هو كقول المتكلمين: إنه الدلالة علىٰ ما في المخلوقات من بديع صنع الله، أو ما في المخلوقات من الدليل علىٰ أن الذي خلقها هو الله، فليس التسبيحُ دلالة علىٰ شيء آخر، وإنما قول أهل السنة وقول المحققين من أئمة التفسير والسلف: إن التسبيح في نفسه موجود لفظًا وحالًا، فليس هو دلالة علىٰ شيء آخر، وإنما القول بأنه دلالة هٰذا ليس من أقوال أهل السنة.

قال: ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ ﴾ السَّمٰوات جمع سماء، وإذا جُمعت السَّمٰوات فإنه يراد بها السَّمٰوات السبع المعروفة؛ لأنها هي المذكورة في القرآن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢ ﴾ [الطلاق]، وأما إذا أُفرِدت السماء في القرآن ولم تأتِ بلفظ الجمع (السَّمٰوات) فقال: (السماء) فإنه قد يُراد بها جنس السَّمٰوات السبع، وقد يُراد بها جنس العلو، ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ﴾[الملك: ١٦]، السماء هنا فسرت علىٰ أن المراد بها جنس السَّمٰوات السبع، لتكون (في) هنا بمعنىٰ (علىٰ)، أي: أأمنتم من علىٰ السَّمٰوات. وقد تكون السماء

هنا بمعنىٰ العلو، ويكون معنىٰ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يعني: مَن في العلو.

و(الأرض) جاءت في القرآن مفردة ولم تأتِ مجموعة، وإنما جاء فيها قول الله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾. وهل ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾ هنا المراد بها مثلهن في العدد، أو مثلهن في الوصف؛ أن الواحدة فوق الأخرىٰ ؟ الظاهر من هٰذا أن المقصود بقوله: ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾ مثلية العدد؛ وذلك لما ثبت في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ». والمثلية هنا ليست مثلية الطبقات، وإن كان فيها بعض الأحاديث وأن بين كل أرض وأرض كذا وكذا، ولا يدل دليل واضح علىٰ نفي هٰذه الطبقات أو علىٰ إثباتها. ولكن المقصود هنا في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ ظاهر السياق أنه يراد به العدد ولا يراد به الوصف.

ثم إن المثلية إذا أُرجعت إلىٰ الوصف فإن الوصف لا يتحدد بكونه بين كل سماء وسماء كذا، فيكون بين كل أرضٍ وأرض كذا؛ لأن مثلية الصفات تقتضي المشابهة أو المماثلة في أشياء كثيرة، وهٰذه تحتاج إلىٰ دليل يدل علىٰ المماثلة في الصفات، ولهٰذا صار تفسير المماثلة بأنها مماثلة العدد دون مماثلة الصفات هو المتعين لظاهر السياق ولقوله في الحديث الذي في الصحيح: «طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

قال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ هو سبحانه العزيز، والعزيز لها ثلاثة تفسيرات كاسم من أسماء الله جل وعلا:

المعنىٰ الأول: العزيز بمعنىٰ أنه القاهر الذي يغلب ويقهر كل شيء.

المعنىٰ الثاني: العزيز الذي لا يُرام له جناب، ولا يوصل إليه ﷻ بشيء من الأذىٰ أو التعدي أو نحو ذلك.

المعنىٰ الثالث: العزيز الذي له العزة والكبرياء والرفعة الكاملة.

وهٰذه الثلاث ثابتة لله جل وعلا، وقد نظمها ابن القيم في «النونية» بقوله:

وهو العزيز فلن يُرامَ جَنَابُه ... أنَّىٰ يُرامُ جَناب ذي السُّلطانِ
وهو العزيز القاهر الغلّاب لم ... يغلبْه شيء هٰذه صِفتانِ
وهو العزيز بعزة هي وَصْفُه ... فالعِزُّ حينئذٍ ثلاثُ مَعَانِي
وهي التي كَمُلَتْ له سُبحانَه ... مِن كلِّ وجهٍ عادم النقصانِ

إلىٰ آخره...

فإذن عزة الله جل وعلا عزةُ قهرٍ وغلبة، وعزة استعلاء ورفعة، وعزة استعلاء عن أن يكون له أو يكون فيه ﷻ أو يكون منه ما يشين.

أما الحكيم في أسمائه جل وعلا: فإن الحكيم: فعيل، وتكون فعيل بمعنىٰ فاعل، يعنىٰ حكيم بمعنىٰ حاكم، وهو الذي له الحكم، وهٰذه جاءت في القرآن في غير ما آية، وتكون فعيل هنا بمعنىٰ مفعل، يعنىٰ هو الْمُحْكِم، وتكون حكيم أيضًا بمعنىٰ أنه هو ذو الحكمة فيما خلق ﷻ وفيما قدر.

وهٰذه الثلاث كلها جاءت في القرآن في وصف الله جل وعلا بها:

فهو ﷻ الحاكم في كونه. وهو الحاكم أيضًا في شرعه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]. وهو الحكيم سبحانه بمعنىٰ المحكم، هو الذي أحكم كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[هود:١]، وهو الذي أحكم خلقه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]، وهو الحكيم بمعنىٰ أنه ذو الحكمة كما قال: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ [القمر: ٥]، وهو سبحانه له الحكمة البالغة النافذة في كل شيء.

وختام الآية بـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ كما ترىٰ لتعلقها باستحقاقه ﷻ للتسبيح؛ فإنه جل وعلا يُنزَّه عن كل نقص وعيب، وعن كل ما لا يليق بالكمال والجلال والجمال؛ لأنه ﷻ الذي كمُلت له معاني العزة والحكمة والحكم والإحكام... إلىٰ آخره.

وهٰذا فيه دلالة أيضًا علىٰ بقية الأسماء والصفات إذا تأملتَ!

قال بعدها: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾، في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ دائمًا في القرآن الكريم تتعلق القدرة بكل شيء، وقدرته ﷻ متعلقة بكل شيء، فتشمل ما يشاءه جل وعلا وما لا يشاءه، فهو ﷻ القدير علىٰ ما يشاء، والقدير علىٰ ما لم يشأ؛ كما قال جل وعلا في سورة الأنعام: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[الأنعام:٦٥]، فالأولىٰ والثانية لم تحصل، وهو جل وعلا القادر عليهما، فلم يشأهما جل وعلا كونًا، وأخبر أن قدرته متعلقة بهما، والثالثة حصلت وشاءها الله جل وعلا، وقدرته متعلقة بها.

وتخصيص تعليق القدرة بما يشاءه جل وعلا دون ما لم يشأه هٰذا مذهب المتكلمين، وهو قول الأشاعرة ونحوهم، حيث يعدلون عن قول: (وهو علىٰ كل شيء قدير)، أو (إنه علىٰ كل شيء قدير)

إلىٰ: (إنه علىٰ ما يشاء قدير)؛ إخراجًا لما لم يشأه سبحانه من تعلق قدرته جل وعلا به. وإذا قال القائل: (إنه علىٰ ما يشاء قدير) فإنها صحيحة، لكن لا يخرج منها ما لم يشأه.

لهٰذا جاء في بعض الأحاديث: «إِنِّي عَلَىٰ مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»؛ لأنه جل وعلا قادرٌ علىٰ ما يشاء وعلىٰ ما لم يشأ، وهو سبحانه قادر علىٰ كل شيء جل جلاله.

ثم قال سبحانه في هٰذه الآية العظيمة التي تجِل منها القلوب: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ ﷻ، قوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ جاء في الأحاديث التي سمعت أن النبي ﷺ كان يدعو حينما يأوي إلىٰ فراشه بقوله: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ». وهٰذا يعني أن أولية الله جل وعلا المراد بها أولية الزمان، والزمان مخلوق، والله جل وعلا هو الذي خلق الزمان، الزمان له بداية، والله ﷻ هو الأول قبل أن يوجد الزمان، وقبل أن توجد نِسب الزمان؛ لأن الزمان لا بد لحسابه من شيء ينسب إليه، فاليوم كيف حُسب؟ لأجل طلوع الشمس وغروبها، ثم طلوع الشمس من جديد، كيف حُسب الشهر ؟ لأجل طلوع الهلال، ثم عودة الهلال من جديد، والسنة برجوعها، ومن الشتاء إلىٰ الشتاء، فثم تكرر في شيء جعل الزمان ينسب فيحسب بهٰذا الشيء، أما عند الله جل وعلا فنسبة الزمان مختلفة ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾ [الحج]، ويوم القيامة يمكث الناس فيه وهو يوم واحد خمسين ألف سنة ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ [المعارج]، وقبل خلق الزمان فإنه لا شيء ينسب حتىٰ يكون ثَم زمان، ولهٰذا هو الله جل وعلا الأول الذي ليس قبله شيء.

وهٰذا اسم دال علىٰ أزليته سبحانه، وكلمة (أزل) لم ترد عن السلف، وهي منحوتة من كلمتين، وهما (لم يزل)، يعني أنه ليس له بداية، ويقال هٰذا في الأشياء التي ليس لها بداية، فيقال: هٰذا أزلي، يعني أنه لم يزل. والله جل وعلا له ما هو أكمل وأعظم من الأزلية، وهو أنه ﷻ الأول الذي خلق الزمان وخلق المكان، فهو ﷻ أول، جل جلاله وتقدست أسماؤه وتعالىٰ جل وعلا في ملكه وملكوته وعزته وسلطانه.

ثم قال: ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾، قال عليه الصلاة والسلام في ثنائه علىٰ ربه: «وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ» والآخرية المقصود بها هنا امتداد الزمان إلىٰ ما لا نهاية، فهو الآخر ﷻ الذي ليس بعده شيء جل وعلا.

وهٰذان الاسمان العظيمان لله جل جلاله يدلان علىٰ عظم الرب جل جلاله؛ لأنه ما من شيء يحدث

في هٰذا الملكوت إلا وهو يحدث من جهة بداية ونهاية، وهٰذا دليل علىٰ أن كل شيء محتاج إلىٰ الرب جل وعلا، فما من شيء إلا له بداية؛ لأن الله خلقه، وله أيضًا نهاية إذا قدر الله جل وعلا له النهاية.

وأما الرب جل جلاله فهو الذي لا يوصف بالبداية ولا يوصف بالنهاية؛ لأنه هو الذي خلق الزمان الذي له بداية وله نهاية، وهو ﷻ أولٌ قبل الزمان، وآخرٌ بعد الزمان، وخلْقه ﷻ للزمان يبين أن الزمان من جنس المخلوقات الأخرىٰ محتاج إلىٰ الله جل وعلا.

ثم قال: ﴿ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ أما الظاهر فالمقصود به: أنه ﷻ الظاهر علىٰ كل شيء بذاته، والظاهر علىٰ كل شيء أيضًا بصفاته ﷻ؛ لأن كلمة (الظاهر) اسم فاعل من الظهور، أو اسم من قام به الظهور، يعني من حيث اللغة، والله جل وعلا هو الظاهر في ذاته؛ لأن له ﷻ صفة العلو علىٰ كل شيء؛ علو الذات، وهٰذه تفسَّر بآيات الاستواء وآيات العلو، وأحاديث الاستواء علىٰ العرش، والاستواء عامةً، وعلو الرب جل وعلا علىٰ خلقه مستويًا علىٰ عرشه ﷻ.

والله جل وعلا الظاهر في صفاته، سواء منها صفات الخلق والتكوين، أو صفات الاطلاع والمراقبة والشهود، فهو ﷻ الظاهر علىٰ كل شيء،

وفي كل شيء له آية تدل علىٰ أنه الواحد

جل جلاله.

فما من شيء مخلوق إلا وفيه أثر صفة الرب جل وعلا، هو سبحانه القائم علىٰ كل شيء، الحي القيوم، ما من شيء إلا وقيامه بالله، فكل شيء هو ﷻ ظاهر فيه بما فيه من الصفات التي تدل علىٰ ربه الذي خلقه وأبدعه وكونه جل جلاله.

وأما الاسم الأخير وهو قوله: ﴿ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ فكما ذكرنا في قوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ ﴾، الباطن: اسم من قام به البطون، والبطون يكون بطون ذات، ويكون أيضًا بطون صفات، يعنىٰ من حيث أصل الكلمة، لكنه بالإضافة إلىٰ الله جل وعلا لا يكون إلا بطون الصفات، وأما بطون الذات ومعناه أنه جل وعلا في كل مكان وأنه بذاته يحل في كل شيء حتىٰ يكون باطنًا له، فهٰذا مما جاءت النصوص بنفيه نصًّا أو بنفيه معنًىٰ، بل معنىٰ ظهور الذات لله جل وعلا وأنه مستوٍ علىٰ عرشه يخالف بطون الذات.

ولذلك كان السلف يقررون ويؤكدون أن الله جل وعلا مستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ من خلقه؛ لأجل ألا يفهم البطون علىٰ أنه بطون ذات، والمتكلمون والأشاعرة ومن نحا نحوهم يقولون: إنه سبحانه في كل

مكان؛ أي أن البطون بطون ذات، وهٰذا يعني أنه حالّ في كل شيء، وهٰذا قولٌ باطل، ولإبطاله أدلة كثيرة معروفة.

فيكون معنىٰ الباطن: أنه سبحانه باطن الصفة، وهٰذا هو الذي فسره الترمذي لما ساق الحديث من قول النبي ﷺ: «والذي نَفْسُ محمدٍ بِيَدِهِ، لو أَنَّكُم دَلَّيْتُم بحَبْلٍ إلىٰ الأرضِ السُّفلىٰ لَهبَطَ علىٰ اللهِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ قال الترمذي: (وفسر بعض أهل العلم هٰذا الحديث فقالوا: إنما هَبَط علىٰ عِلم الله وقدرته وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو علىٰ العرش، كما وصف في كتابه). هٰذا تمثيل، يعني (علىٰ علم الله وقدرته وسلطانه) هٰذا تمثيل، وإنما يعني به أن البطون هنا بطون الصفة.

وبطون الصفات يكون فيه معانٍ كثيرة؛ منها القدرة، ومنها العلم، ومنها الرحمة... ولهٰذا قال جل وعلا في آية سورة النحل: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ فالمقصود هنا إتيان الصفات، لا إتيان الذات.

لهٰذا تنتبه إلىٰ أن تفسير الأسماء لله جل وعلا خاض فيه أقوام ممن كتبوا من العلماء في الزمن الماضي، وأكثر من كتب فيه من ليسوا متحققين تمامًا بمنهج وطريقة أهل السنة والجماعة، وإنما يصيبون ويخطئون، ولا يحقّقون في ذلك، فالاعتماد في تفسير الأسماء والصفات علىٰ اللغة ليس بجيد، وإنما الواجب أن تفهم الأسماء والصفات باللغة؛ لأنها هي اللسان الذي به نفهم، ثم بالنصوص الأخرىٰ التي تبين وجه دلالة اللغة، قد تكون دلالة اللغة واسعة والنصوص تخصها، وقد تكون دلالة اللغة ناقصة والنصوص توسعها، وهكذا؛ لأن اللغة فيها تارةً سعة وتارةً محدودية، بحسب استعمال العرب للكلمات وحسب تصورهم أو حاجتهم للاستعمال.

كذلك اسم (الباطن) فيه أيضًا معنىٰ القرب، وقُرْبُ الله جل وعلا العام لم يدل الدليل عليه؛ أي أنه ﷻ قريبٌ بذاته من كل أحد، وإنما الذي جاء بالقرب العام قرب الملائكة، وأما القرب الخاص فقد ثبت أن الله جل وعلا يوصف بالقرب الخاص، يعني من بعض خاصة عباده.

فإذن ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ كما ذكرنا اسمان للدلالة علىٰ الأزلية والأبدية ﴿ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ اسمان دالان علىٰ علو الله جل وعلا، وعلىٰ دنوه ﷻ وإحاطته بكل شيء، وقربه من خاصة خلقه، ونحو ذلك.

والأحاديث التي ذَكر في أن ما بين السماء والسماء كذا وبين الأرض والأرض كذا، وأن ما بين السماء إلىٰ السماء مسيرة خمسمائة سنة، نقول: هٰذا جاء في عدة أحاديث وهو ثابت، أما ما بين الأرض والأرض فالألفاظ التي جاءت فيها كلها ضعيفة ومنكرة لا يثبت بها شيء.

قوله: «لو أَنَّكُم دَلَّيْتُم بحَبْلٍ إلىٰ الأرضِ السُّفلىٰ لَهبَطَ علىٰ اللهِ» هٰذا فيه نكارة وفيه إشكال، ويمكن أن يجاب عنه بأجوبة صحيحة:

الجواب الأول: أن يقال: لو حصل أنه وجد هٰذا الحبل الذي يوصف بطوله لهبط علىٰ الله، يعني أن الله جل وعلا محيط بكل شيء، والأرض السفلىٰ هنا يقصد بها أن الأرض لها جهتان: جهة العلو، وجهة السفل، ولا يدل علىٰ أن المراد أن الله جل وعلا في الأرض السفلىٰ.

الجواب الثاني: أن قوله عليه الصلاة والسلام: «لو أَنَّكُم دَلَّيْتُم بحَبْلٍ إلىٰ الأرضِ السُّفلىٰ لَهبَطَ علىٰ اللهِ» هٰذا فيه تفسير لمعنىٰ الإحاطة في قوله جل وعلا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ١٢٦﴾ [النساء] وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٌ ٥٤﴾ في آخر فصلت، وإحاطته جل وعلا بالأشياء هي إحاطة ذات وصفات؛ وقدرة وسعة وشمول، إن لم تفسر بالذات نصًّا لكنها في تفاسير السلف تدور علىٰ ذلك، وهٰذا يمكن أن يتصور إذا تصورت ما جاء في الأدلة من صغر الأرض بالنسبة إلىٰ السَّمٰوات، ومن صغر السَّمٰوات بالنسبة إلىٰ الماء، والسَّمٰوات بالنسبة إلىٰ الكرسي، وصغر الكرسي بالنسبة إلىٰ العرش... وهكذا، فإنك تأتي من صغر إلىٰ صغر بحيث تكون هٰذه الأرض صغيرة جدًّا، ولهٰذا تكون الأرض يوم القيامة قبضة الرب جل وعلا، والسَّمٰوات مع أنها أكبر من الأرض بكثير مطويات بيمين الرب جل وعلا، وهٰذا يدل علىٰ صغر هٰذه الأشياء بالنسبة إلىٰ عظمة ذات الله جل وعلا.

وهٰذا فيه تفسير لمعنىٰ الإحاطة التي ذكرها المفسرون.

المقصود من ذلك أن هٰذا التوجيه الثاني يرجع إلىٰ معنىٰ الإحاطة، وهٰذا توجيه لا بأس به. وابن تيمية له كلام أيضًا طويل في تفسير هٰذا الحديث يُرجع إليه لفائدته.

***

فائدة:... تعرف من قال هٰذا الكلام؟ ولا أحد يعرفها، هٰذا نشرت في الأنترنت، في زاوية، الذي نشرها نصراني هو أصلا ليس بمسلم حتىٰ يكفر أو لا يكفر، ورد عليه في الأنترنت، من مدة طويلة، لا يلتفت

إليه..

الإنسان إذا قل علمه زاد إعجابه بنفسه؛ يتصور أن كل شيء يمر عليه وهو لا يعرفه أنه غلط، يأتي واحد توه قرأ كتاب في النحو ويبدأ يصحح ويغلط، العلم أوسع من أن يستعجل فيه الإنسان لهٰذا جيد أن طالب علم إذا مر عليه إشكالات أنه يبحثها، فإذا بحثت زادت معلوماتك، فيه مباحث لا تأتيك بالقراءة في الكتب إنما تأتي بحل الإشكالات، لهٰذا يقول القرافي في الفروق: ومعرفة الإشكال في نفسه علم. نفس معرفة الإشكالات علم، لأنك إذا عرفت الإشكال بحثت عن حله هٰذا تعطيك علوما خرىٰ لا تقرؤها في كتاب، طالب العلم يكون معلوماته دائما بالاطلاع والأناة والتواضع للعلم، مثلا أذكر أنه في كتاب لا أدري ذكرتها لكم أو لا، أتيت بكلمة قلت: وأما ما ذكره هٰذا الفاعل فهو ... لعله في «هٰذه مفاهيمنا» وجاء أحد الإخوان أبدىٰ ملاحظات وأكثرها فيه وجهات نظر وبعضها صحيح، قال: الفاعل خطأ مبطعي ، طبعا أن الفاعل غير القائم، لٰكِـن لو أنه بحث قبل راح لمعجم اللغة وشاف الفاعل والقائم وعرف الفرق بينهما، وأن الفاعل كلمة أخرىٰ غير القائم، ومثل ذلك من يغلط في اللغة أحد العلماء أو في الفقه أو يقول: اللفظ هٰذا ليس لفظا صحيحا، ونحو ذلك، هو ما بحث، الغلط لا ينزه منه الإنسان؛ لٰكِـن قبل أن تحكم تبحث، إذا بحثت كونت عندك معلومة، وتوجه لك أن هٰذا اللفظ صحيح أو غير صحيح، وهٰذا كثير كمنهج لكم لطلب العلم، لا يصلح أن تستعجل في التخطئة بتوهيم العلماء، أو في النقد قبل أن تبحث في المعلومات التي عندك، لا يصلح، لأن كونك تبتدئ الكلام عنه أنت في سعة، لٰكِـن كون طالب العلم يخطئ غيره أو يتعقب علىٰ غيره يحتاج إلىٰ بحث إلىٰ دقة لأن العلوم واسعة خاصة اللغة، ووأن عند الناس ضعف في اللغة، بعض الكتب والتحقيقات يصحح المخطوطة وهو غلطان، لأنه ما يعرف اللغة ويظن أن هٰذه غلط سواء كانت في السبك أو كانت حتىٰ في الإملاء، تارة يكون في المخطوطة نحويا هي الصواب وهو يصححها بحسب فهمه، تكون غلطا، وتزداد المشكلة إذا كان التصحيح في متن من متون الأحاديث أو في نحوه، كيف يصحح يبدل كلمة مكان كلمة، يغير ألفاظا، بأي حق، من مثل الطبعة التي عندكم في زاد المعاد واحدة من الطبعات بين يديكم كل الأحاديث التي أوردها ابن القيم لم يجد في لفظا في المصدر الذي نقل عنه فإنه يغرها إلىٰ اللفظ الذي في المصدر، مثلا قال رواه الدراقطني يرجع إلىٰ سنن الدار قطني يشوف اللفظ مختلف يحذف اللفظ الذي ساقه ابن القيم ويأتي بما وجده هو في نسخة الدار قطني التي عنده المطبوعة، ويأتي إلىٰ نص في البخاري ما وجده يغيره،

في أبي داود ... جنابة علىٰ العلم وعلىٰ العلماء، علىٰ كتب أهل العلم.

فلا يصلح بحال من الأحوال أن يسلك هٰذا السبيل، هٰذا كلام العالم يبق كما هو، ولهٰذا تجد أن العلماء المحققين ما يستعجلون في توهيم وتغليظ إنما يتأنون ويتأنون، خاصة في العلوم الواسعة مثل علم الحديث ، ومثل اللغة والتفسير، هٰذه أشياء واسعة، لا بد فيها من البحث والتأمل.

والبخاري فيه روايات كثيرة، مسلم أحيانا يقال: رواه مسلم يبحث وما يجد الرواية، يقول هٰذه الرواية لأبي داود، ويكون مسلم ذكر الإسناد ولم يذكر المتن، ويكون الإسناد متنه معروفا في السنن أو في المسند، تقول رواه مسلم، بعض العلماء يتحرز مثل المنذري وجماعة يقولون: رواه مسلم ولم يذكر لفظه، رواه مسلم غير مسألة الشواهد، سنن أبي داود فيها روايات كثيرة، لكم مثلا حديث بريدة «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» رواه أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ابحث في سنن أبي داود الموجودة لا تجد الحديث، يأتي من علق وقال : هٰذا الحديث ليس في السنن، وغلط فيه المنذري وغلط فيه فلان وفلان، حيث عزوه لأبي داود وهو ليس في أبي داود، وهٰذا ليس منهجا صحيحا، داود له روايات.

أيضا في اللغة، لابد من دقة، عشان تعرف كيف تصحح اللفظ في اللغة، لابد أن يكون عندك ملكة في اللغة قبل أن تراجع، ممكن تراجع ولا تعرف كيف تراجع كتابا في اللغة، أيضا تعرف لغة المؤلف يعني الشافعي رحمه الله لغته مستقلة، يعني له لغة قد لا تجدها في غيره من الكتب في بعض الألفاظ ، يأتي الناظر يقول لا، لهٰذا تجد الشيخ أحمد شاكر رحمه الله أحسن أيما إحسان، لما حقق الرسالة للشافعي في أنه خرج كل لفظة مما اختص الشافعي باستعمالها ربطها بأصولها اللغوي وإن كانت قليلة بلغة هذيل أو بلغة كذا..

هٰذه كلمات ، فلابد لطالب العلم أن يتواضع للعلم، العلم واسع، لابد يتواضع إذا ما عرفت شيئا فلا تقل: لا يصح، قل: لا أعرفه، فيه غيرك يعرف، علمتَ شيئا أو

..... حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

العلم واسع، عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أخذ بتلابيب هشام بن حكيم لما اختلفوا في سورة الفرقان، لأنه لا يعلم، ما علم، فلما جاؤوا إلىٰ مصدر الحق وهو المبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال: «اقرأ» قال: «هكذا أنزل»، قال: «اقرأ» قال: «هكذا أنزل»، أنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف، وهٰذا يدلك علىٰ أن

الشريعة فيها سعة، من حيث سعة العلم، ما يمكن واحد يتجرأ علىٰ تخطئة غيره، لأجل أنه علم أشياء وقرأ كتابين ثلاثة.

الدرس الثاني

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن خلقه السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِاسْتِوَائِهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِهِنَّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ هٰذه الْآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا فِي سورة «الأعراف» بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: يَعْلَمُ عَدَدَ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنْ حَبٍّ وَقَطْرٍ، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ مِنْ زَرْعٍ ونَبات وَثِمَارٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الْأَنْعَام].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَمْطَارِ، وَالثُّلُوجِ والبرد، وَالْأَقْدَارِ وَالْأَحْكَامِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ «الْبَقَرَةِ» أَنَّهُ مَا يَنْزِلُ مِنْ قَطْرَةٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا وَمَعَهَا مَلَكٌ يُقرّرها فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَأْمُرُ اللهُ بِهِ حَيْثُ يَشَاءُ تَعَالَىٰ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أَيْ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَعْمَالِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ أَيْ: رَقِيبٌ عَلَيْكُمْ، شَهِيدٌ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ حَيْثُ أَنْتُمْ، وَأَيْنَ كُنْتُمْ، مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فِي الْبُيُوتِ أَوِ الْقِفَارِ، الْجَمِيعُ فِي عِلْمِهِ عَلَىٰ السَّوَاءِ، وَتَحْتَ بَصَرِهِ وَسَمِعِهِ، فَيَسْمَعُ كَلَامَكُمْ وَيَرَىٰ مَكَانَكُمْ، وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَاكُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هُود]. وَقَالَ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرَّعْد]، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِجِبْرِيلَ، لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْإِحْسَانُ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وَرَوَىٰ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ مِنْ حَدِيثِ نَصْرِ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ جُنَادَةَ بْنِ مَحْفُوظِ بْنِ عَلْقَمَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ نَصْرِ بْنِ عَلْقَمَةَ، عَنْ أَخِيهِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَائِذٍ قَالَ: قَالَ عُمَرَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: زَوِّدْنِي كَلِمَةً أَعِيشُ بِهَا فَقَالَ: «اسْتَحِ اللهَ كَمَا تَسْتَحِي رَجُلًا مِنْ صَالِحِ عَشِيرَتِكَ لَا يُفَارِقُكَ».

هٰذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَرَوَىٰ أَبُو نُعَيْمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْغَاضِرِيِّ مَرْفُوعًا: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ الْإِيمَانَ: مَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ، وَأَعْطَىٰ زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الهَرِمَة وَلَا الدَرنة، وَلَا الشَّرط اللَّئِيمَةَ وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ. وَزَكَّىٰ نَفْسَه» وَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا تَزْكِيَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ: «يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ».

وَقَالَ نُعَيْم بْنُ حَمّاد رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ كَثِيرِ بْنِ دِينَارٍ الْحِمْصِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَاجِرٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنُ رُوَيم، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنم، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كنت». غريب.

وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ يُنْشِدُ هَذَيْنَ الْبَيْتَيْنِ:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً ... وَلا أَنَّ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾ أَيْ: هُوَ الْمَالِكُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾ [اللَّيْل]، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَىٰ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الْقَصَص:٧٠]، وَقَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ [سَبَإ].

فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمٰوات وَالْأَرْضِ مِلْكٌ لَهُ، وَأَهْلُهُمَا عَبِيدٌ أَرِقَّاءُ أَذِلَّاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَمَا قَالَ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مَرْيَم].

وَلِهٰذا قَالَ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾ أَيْ: إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، بَلْ إِنْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ عَمِلَ حَسَنَةً وَاحِدَةً يُضَاعِفُهَا إِلَىٰ عَشْرِ أَمْثَالِهَا، ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النِّسَاء] وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الْأَنْبِيَاء].

وَقَوْلُهُ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْخَلْقِ، يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَيُقَدِّرُهُمَا بِحِكْمَتِهِ كَمَا يَشَاءُ، فَتَارَةً يُطَوِّلُ اللَّيْلَ وَيُقَصِّرُ النَّهَارَ، وَتَارَةً بِالْعَكْسِ، وَتَارَةً يَتْرُكُهُمَا مُعْتَدِلَيْنِ. وَتَارَةً يَكُونُ الْفَصْلُ شِتَاءً ثُمَّ رَبِيعًا ثُمَّ قَيْظًا ثُمَّ خَرِيفًا، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِمَا يُرِيدُهُ بِخَلْقِهِ، ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾ أَيْ: يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَإِنْ دَقَّتْ، وَإِنْ خَفِيَتْ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا من الفقه في كتابك إنك علىٰ كل شيء قدير، ربنا لا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، ومُنّ علينا بفتح من عندك، إنك أنت الفتاح العليم.

هٰذه الآيات من سورة الحديد اشتملت علىٰ بيان التوحيد الخبري، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات لله جل وعلا، وبيان قدرة الله ﷻ التي نفذت في ملكوته، وخضع لها كل شيء، ورق لها كل شيء، وفيها بيان عظمة الله جل وعلا، وأنه سبحانه مع جميع خلقه بعلمه وإحاطته وسمعه وبصره جل جلاله وتقدست أسماؤه.

فقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ﴾، وهٰذه الآية لها نظائر في القرآن في عدة مواضع يبين فيها جل وعلا أنه خلق السَّمٰوات والأرض في ستة أيام، وأنه جل وعلا استوىٰ علىٰ عرشه كما يليق بجلاله وعظمته. وخلقُ السَّمٰوات والأرض في ستة أيام جاء مجملًا في أكثر الآيات، وجاء مفصلًا في آية سورة فصلت، فكان خلق السَّمٰوات والأرض مفصلًا؛ خلق الأرض في أربعة أيام، وخلق السَّمٰوات في يومين؛ كما قال جل وعلا: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ ﴾[فصلت]

فخلق السَّمٰوات في يومين مع عظمها وسعتها، وخلق الأرض جل وعلا في أربعة أيام مع صغرها؛ لأن فيها الودائع التي يسخرها الإنسان لعمارتها، وفيها من الأسرار العجيبة مما جعل الله جل وعلا فيها من أنواع الحياة.

وقوله في آية فصلت: ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ ثم قال بعدها ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ اليومان الأولان دخلا في الأربعة أيام، ومجموع خلق الأرض كان في أربعة أيام، وهٰذه الستة أيام المذكورة في هٰذه الآية هي من أيام الله علىٰ الصحيح، وليست من أيام الأرض؛ لأن أيام الأرض صارت زمانًا بعد خلق الأرض واكتمال جريانها علىٰ وفق ما قضىٰ الله جل وعلا لها وقدّر، فهي ستة أيام من أيام الله جل وعلا.

وفي خلقه جل وعلا للأرض وللسموات في هٰذه المدة كما قال طائفة من المفسرين الدليل علىٰ حكمة الله جل وعلا، وأنه سبحانه أعلم بذلك أن الكمال يكون بالتدرج، ويكون بوضع الأمور علىٰ وفق ما يناسبها في الزمن، هٰذا ظاهر؛ لأن الله جل وعلا قادر علىٰ أن يجعل الشيء كائنًا بدون أسبابٍ تنتج

أسبابًا ثم تنتج أسبابًا ثم تحصل النتيجة، والله جل جلاله كما قال في آية فصلت: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ فكانت السماء دخانًا ثم ولد أشياء من أشياء، وخلق أشياء من أشياء، حتىٰ صارت علىٰ هٰذا النحو البديع العجيب، الذي تحار فيه العقول، وتهتدي به إلىٰ فاطرها وخالقها.

ثم قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ والاستواء في اللغة معناه العلو، ويأتي في القرآن بدون تعدية، ويأتي معدًّىٰ:

فأما مجيئه بدون التعدية فكقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[القصص:١٤] ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ يعنىٰ أنه أكتمل في خلقته وفي تكوينه.

ويأتي معدًّىٰ بحرف (علىٰ)، وهٰذا هو الأكثر؛ كما في هٰذه الآية: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ في صفة الله جل وعلا، وكما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾[المؤمنون:٢٨]، يعني علوتم علىٰ الفلك.

وقد يأتي معدىٰ بـ(إلىٰ) كما في قوله جل وعلا في سورة البقرة: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾[البقرة:٢٩]، يعني قصد وعمد عاليًا جل وعلا إلىٰ السماء، ففي تعدية الاستواء بـ(إلىٰ) المعنىٰ الأصلي وهو العلو، وفيه ما يناسب حرف (إلىٰ) من الأفعال وهو القصد والعمد.

لهٰذا تجد أن المفسرين عند آية: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يفسرونها بالقصد والعمد، وهٰذا ليس تأويلًا، ولكنه تفسير بما تضمنته الكلمة من المعنىٰ؛ لأن الاستواء معلوم أنه العلو، فذكروا ما زاد عن هٰذا المعنىٰ بما يناسب التعدية بحرف الجر (إلىٰ)، وهٰذا معروف في لغة العرب أنها بدل أن تكرر الفعل للدلالة علىٰ معنيين مختلفين فإنها تبقي الفعل علىٰ دلالته الأولىٰ ثم تُعدي بحرف جر يدل علىٰ الفعل الآخر الذي ضُمِّن في الفعل الأول، فمعنىٰ (استوىٰ إلىٰ): قصد مع علوه، وهٰذا كثير في اللغة، ويسمىٰ باب التضمين، وهو الطريقة الحسنة في النحو التي أخذ بها الكوفيون، وهي الأوفق للتحقيق في اللغة، بخلاف طريقة البصريين في جعل حروف الجر ينوب بعضها عن بعض؛ لأن هٰذا فيه تخريج لكثير من الشواهد أو كثير من الاستعمالات، لكنه ليس هو التحقيق؛ فإن التحقيق أن حروف الجر كل حرف له معنىٰ، فإذا عُدي فعل بحرف لا يناسب تعديته دل علىٰ تضمين ذلك الفعل معنىٰ فعل آخر دل عليه حرف الجر الذي عدي به، وهٰذا كثير معروف، ويُبحث في مواضعه في كتب النحو وفي كتب اللغة وفي كتب حروف المعاني.

وحقيقة استواء الله جل وعلا علىٰ عرشه لا يعلمها إلا هو، ولكن في هٰذه الآية وأمثالها إثبات استواء الله جل وعلا علىٰ العرش، ومعنىٰ هٰذا الاستواء علىٰ العرش أنه جل جلاله علىٰ عرشه علوّا خاصّا، وهو ﷻ عالٍ علىٰ مخلوقاته، وهو فوق مخلوقاته، ولا شيء من مخلوقاته يعلوه أصلًا، ولكنه استوىٰ علىٰ عرشه، يعني علا علىٰ عرشه علوًّا خاصًّا كما يليق بجلاله وعظمته.

لهٰذا فسر طائفة من السلف (استوىٰ علىٰ العرش) بمعنىٰ: عالٍ عليه، ومنهم من قال: استقر، ومنهم من قال غير ذلك في التفاسير المعروفة التي ساقها البخاري وغيره كما هو معلوم، وساقها ابن جرير في التفسير وجماعة.

وحرف (ثم) هٰذا الذي يدل علىٰ التراخي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ يدل علىٰ أن استواءه جل وعلا علىٰ العرش كان متراخيًا عن خلق السَّمٰوات والأرض؛ لدلالة حرف العطف (ثم).

والتراخي قد يكون تراخيًا لزمنٍ بعيد، وقد يكون لغير ذلك، لكن ظاهر الآية يدل علىٰ أن التراخي حاصل؛ لمجيء لفظ (ثم) في كثير من الآيات التي فيها ذكر الاستواء علىٰ العرش.

والعرش كما هو معلوم في كتب العقيدة أعظم مخلوقات الله جل وعلا، وهو مخلوق مستقل ليس هو السَّمٰوات، وليس هو الأفلاك، وليس هو جامع الأفلاك كما يزعمه أهل الفلسفة والهيئة، وله قوائم تحمله الملائكة، وله صفات عظيمة في خلقته وهيئته يمتنع معها أن يُفسر العرش بغير هٰذا.

وأصل مادة العرش في اللغة -كما هو معلوم- أيضًا مأخوذ مما يُصنع مرتفعًا للعلو عليه؛ فقيل لما يجلس عليه الملوك: عرش؛ لأنهم يعلون عليه، فمادة عرش وما اشتق منها دال علىٰ هٰذا المعنىٰ؛ كما في قوله: ﴿وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨﴾ [النحل]، وكما في قوله: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل] وأشباه ذلك.

فالعرش مخلوق له قوائم مستقلة جعله الله جل وعلا عاليًا علىٰ جميع المخلوقات، فالكرسي تحته، والسَّمٰوات صغيرة جدًّا بالنسبة لعرش الرَّحمٰن، وعرش الرَّحمٰن جل وعلا فوق الجنة وسقفها، وهٰذا يعجز الذهن عن أن يتصوره، وأن يدرك ذلك، لكن هو إثبات، ولا شك أن عدم الإدراك دليلٌ علىٰ عظم ما أخبر الله جل وعلا عن هٰذا المخلوق العظيم.

قال بعدها سبحانه: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ ذكر جل وعلا أنه يعلم كل شيء؛ يعلم الذي يلج في الأرض، ويعلم الذي يخرج منها، وهٰذا العلم علمٌ نافذ متعلق بصغير

الأشياء وبكبيرها.

وفي قوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾ (ما) هنا موصولة تفيد العموم فيما كان في حيز صلتها، يعني عموم الأشياء التي تلج في الأرض، فيدخل في ذلك ما يلج في الأرض من قطر، وما يلج في الأرض من رياح، وما يلج في الأرض من هوامّ، وما يلج في الأرض من بذور، وما يلج في الأرض من آفات، كل هٰذا في علم الله جل وعلا، كما قال سبحانه في آية سورة الأنعام: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾، فهو سبحانه العليم بكل شيء.

قال: ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ هٰذا أيضًا عموم، وكل ما يخرج من الأرض علىٰ وجه التفصيل حتىٰ خروج الزهرة في أبعد فلاة فإنه سبحانه مطلع علىٰ ذلك ويعلمه، وهٰذا بالإضافة إلىٰ علمه وبالنسبة إلىٰ علمه شيء قليل؛ لأن علم الله جل وعلا لا يحده حاد، ولا يدركه وصف.

قال بعدها: ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ ما ينزل من السماء يشمل نزول الخيرات الدنيوية، ويشمل أيضًا نزول الخيرات الدينية؛ من إنزال الملائكة بالكتب وبالوحي، وإنزالها بأوامر الله جل وعلا، وهٰذا فيه سعة علم الله جل وعلا بأنواع المخلوقات، وأنواع النعم الدينية والدنيوية، وهو سبحانه المتفرد بهٰذا علىٰ وجه الكمال.

كذلك قال: ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يعني يعرج في السماء، والعروج معناه الصعود والارتفاع، ولا شك أن الأشياء التي تصعد في السماء وتعرج في السماء متنوعة؛ فمنها عروج الملائكة علىٰ اختلاف أنواعهم، ومنها عروج العمل الصالح ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿ يَصْعَدُ ﴾ يعني يعرج في السماء، ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾: يعني أيضًا العمل الصالح يعرج في السماء، وهٰذا نوع من أنواع ما يعرج في السماء.

ولهٰذا المؤمن إذا نظر إلىٰ السماء وتأمل فإنه ينظر إلىٰ ما أخبر الله جل وعلا به عن هٰذه السماء، فيكون تارَةً معتبرًا بما فيها من المخلوقات العجيبة والآيات الدالة علىٰ عظم من أنشأها وأبدعها، وينظر تارة إلىٰ ما ينزل من هٰذه السماء وما يصعد فيها من الملائكة.. فهٰذه ملائكة نازلة وهٰذه ملائكة مرتفعة تعرج إلىٰ ربها الرَّحمٰن.. فيأخذه العجب من كثرة ما ينزل وكثرة ما يصعد.. ثم ينظر تارة فإذا بأعمال

طائفة من عباد الله جل وعلا ممن عملوا صالحًا، وتكلّموا طيبًا، وأنشئوا ما يحمد لهم، ويحبه الرَّحمٰن جل وعلا.. فكم وكم من الأعمال الصالحة ومن الكلم الطيب اخترق هٰذه السماء يتسابق بحمل الملائكة له إلىٰ الرَّحمٰن جل جلاله الذي استوىٰ علىٰ عرشه كما يليق بجلاله وعظمته.

وهٰذه الآيات وأمثالها تُحدث عند المؤمن دائمًا الفكرة والنظر، فالمؤمن لا يغفل عما في السماء، ولا يغفل عما في الأرض، فينظر فيها لا بنظر المتحيز، ولكن بنظر المستسلم لما قص الله جل وعلا وأخبر في كتابه، أو أخبر به رسوله ﷺ، ومن فاته جمع ما أخبر الله جل وعلا به عن مخلوقاته وما يحدث فيها فإنه يفوته العلم بحقيقة هٰذه المخلوقات، وكيف تكون صلته بها.

فالمؤمن متصل بالأرض اعتبارًا، ومتصل بالسماء اعتبارًا، وله في كل نظر ما يُحدث لقلبه التعظيم بربه جل جلاله وتقدست أسماؤه، فعلم الله جل وعلا النافذ بالمخلوقات وبما فيها الإنسان هو أحد معاني معيته جل وعلا العامة للإنسان، لهٰذا قال بعدها: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ يعني معكم بعلمه، مع جميع خلقه بعلمه؛ لأن المعية في اللغة وفي الاستعمال القرآني معناها الاقتران بالصفة؛ اقتران الشيء بالشيء بصفة من الصفات؛ كما قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة]، أي كونوا معهم لا بذواتكم ولكن كن مع الصادقين من الصحابة بالصدق، وكن مع الصادقين من التابعين بالصدق، فهٰذه معية بصفة، وهي الصدق، فالمعية في اللغة لا تقتضي اقتران الذات بالذات، ولا حلول الذات بالذات، وإنما تقتضي الاقتران في صفة، أو تقتضي المصاحبة في صفة، فهنا مثلًا فيما يتعلق بجميع خلق الله جل وعلا قال: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ ﴾ فهٰذه معية بصفة أو بأكثر من صفة لكنها اقترانٌ بصفة من الصفات، وهي صفة علم الله جل وعلا لجميع خلقه.

وكذلك هٰذا العلم والاطلاع والإحاطة معناه أنه معهم بسمعه جل وعلا، ومعهم ببصره ﷻ، ومعهم بإحاطته، ومعهم بقدرته، وهٰذه هي المعية العامة لكل بني آدم؛ بل لكل المخلوقات، تعالىٰ ربنا وتقدس.

والنوع الثاني من المعية كما هو معروف المعية الخاصة، وهٰذه هي التي جاءت في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل] وكما في قوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، فهٰذه معية خاصة واقتران بصفة من الصفات المناسبة للخصوصية، وهي معية التوفيق،

يعني أنه جل وعلا معهم مصاحب لهم ﷻ، وهٰذا كالتفسير أو تقريب، فهو معهم بتوفيقه ومعهم بتأييده، ومعهم بنصره ﷻ.

ومن هنا تعلم أن كثيرين أخطؤوا في هٰذا الباب خطأً بليغًا، فظنوا أن تفسير السلف للمعية بمعية العلم أو المعية الخاصة بالتوفيق أن هٰذا من التأويل، فجعلوه دليلًا علىٰ أن السلف تأولوا، وهٰذا غلط؛ لأن التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه، والمعية ليس ظاهرها معية الذات، يعني مخالطة الذات للذات حتىٰ يكون صرفها عن هٰذا في اللغة تأويلًا، بل ظاهرها يدل كما ذكرنا علىٰ اقتران الذات بالذات بصفة، ولا يعني الاقتران الحلول أو أن تكون الذات مختلطة بالذات، وإنما يكون هناك اتصال بصفة من الصفات.

لهٰذا الرجل يقال في حقه: إن زوجته معه، كما هو معروف في اللسان، زوجته معه يعني أنها مقترنةٌ به بصفة، وهي صفة الزوجية، وهكذا في أمثاله.. الصادق مع الصادق.. والمجرم مع المجرم.. والظالم مع الظالم... ونحو ذلك، وكما تقول العرب: صارت الركبان والبدر معها، يعنىٰ أنهم صاروا في ليلة مضيئة، في ليلة كان البدر فيها مكتملًا، ومعلوم أن البدر كان مع الركبان بصفة ليس مختلطا بذواتهم، وليس كأحد الركبان.

المقصود من هٰذا أن من ظن أن تفسير السلف للمعية بمعية العلم أو معية الإحاطة أو القدرة أو السمع أو البصر وأشباه ذلك، أو أنها معية تأييد وتوفيق؛ من ظن أن تفسيرهم هٰذا تأويلٌ فهٰذا غلط، ليس هٰذا بتأويل، بل هٰذا هو ظاهر الكلام، وهٰذا هو ما يدل عليه مثل هٰذا السياق في هٰذه الآية.

كذلك من أوغل وقال: إن المعية هي معية ذات مع بقاء الاستواء علىٰ عرش الرَّحمٰن، بمعنىٰ أنه جل وعلا مع خلقه بذاته مع استوائه علىٰ عرشه، فهٰذا إيغال في إثبات المعية بما لم يرد عن السلف الصالح، ومعلوم أن تفسير القرآن إنما كان الأحرىٰ والأجدر به هم الصحابة ثم التابعون، فإذا كان تفسير كلمة مهجورًا سواء من عامة آيات القرآن أو من آيات الصفات وهو الأعظم في القرون الثلاثة المفضلة؛ فلا يصح لمن بعدهم أن يحدثوا في تفسير القرآن زيادة؛ لأن السلف هجروا ذاك، وهجرهم هٰذا عن علم؛ كما وصفهم عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بقوله: فإنهم علىٰ علمٍ وقفوا، وببصر نافذ كفوا.

وهٰذا هو الذي ينبغي؛ فإن هناك بعض المعاني قد يأتي للذهن أنها صحيحة وأنه لا مخرج لها عن هٰذا المعنىٰ، لكن ينظر طالب العلم في استعمال السلف للكلمة؛ فإنه يسعنا ما وسعهم، سواء في العبادات أو

في أبواب تفسير القرآن والصفات... إلىٰ آخره، فلا نزيد عما أوردوا، وفيما ذكروه وعبروا به عن تفسير القرآن الكفاية والمقنع.

قال جل وعلا بعدها: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ ﴾ والله جل جلاله بصير ببصر وبرؤية بكل ما يعمله الإنسان، بل بكل ما يعمله المكلفون من الجن والإنس، فهو سبحانه معهم، وهو بصير بأعمالهم، لا يخفىٰ عليه شيء منها علىٰ وجه التفصيل.

ثم قال جل جلاله: ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥ ﴾ قدم هنا (له)، يعني قدم الجار والمجرور؛ لإثبات اختصاصه جل وعلا بهٰذا الملك؛ لأن تقديم الجار والمجرور ومجيء النكرة بعده يفيد الاختصاص؛ اختصاص الله جل وعلا بهٰذا.

ومعلوم أن الله سبحانه ملك السَّمٰوات والأرض، لا أحد يدعي ذلك، فهو سبحانه المختص بذلك، وإذا كان كذلك فهو الحقيق جل جلاله بأن يُعظم، وأن تجل منه القلوب وتخضع له الرقاب، جل جلاله، وتقدست أسماؤه.

والْمُلك معناه نفوذ أمر الْمَلك الذي يرجع إليه نفوذ الأمر والتدبير فيما يملكه، ويشمل ذلك أنه سبحانه يملك هٰذه الأشياء ملكًا، فهو مالك لها ومَلكٌ عليها جل جلاله، وهٰذا هو مُلكه ﷻ، يعني أنه يملك وهو الملك علىٰ ذلك، أما الإنسان فقد يملك وليس بملك، وقد يكون ملكًا ولا يملك، فمهما عظم ابن آدم في التملك فإنه يبقىٰ ضعيفًا جدًّا، ومهما بلغ ابن آدم في الملك فإنه يبقىٰ ضعيفًا جدًّا، والله سبحانه هو المختص بأنه له ملك السَّمٰوات والأرض.

قال: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥ ﴾ وهٰذا راجع إلىٰ تدبيره سبحانه، فكل أمر يحدث في السَّمٰوات، كل اقتران ريح بريح، أو تأثير كوكب علىٰ كوكب، أو تواصل، أو ما يحدث في السماء، أو ما يحدث في الأرض، كل ذلك من الأمور صغرت أم عظمت مرجعه إلىٰ ربه جل جلاله، فمعنىٰ ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥ ﴾ يعني إلىٰ الله وحده دون ما سواه من الأنداد، دون ما سواه من الآلهة المدعاة ترجع الأمور علىٰ تفاصيلها، وهو الذي يعلمها ويقدرها، وينفذ فيها أمره وتدبيره جل ربنا وتقدس.

ثم قال في الآية الأخيرة: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ﴾ الإيلاجُ في هٰذه الآية كما هو في اللغة بنفس المعنىٰ، وهو إدخال شيء في شيء علىٰ رفقٍ وتؤدة، بخلاف الدفع ونحوه فإنه ليس إيلاجًا، ومجيء لفظ الإيلاج هنا هو أصدق تعبير عن الواقع بما تدل عليه اللغة؛ فإن النهار يدخل في

الليل شيئًا فشيئًا، والليل يدخل في النهار شيئًا فشيئًا حتىٰ يمتزجا، فيكون هٰذا قاضيًا علىٰ ذاك، أو هٰذا مذهبًا لذاك.

وفي الحقيقة أن دخول النهار في الليل، والليل في النهار، مع ظهور أسبابه الفلكية يجعل الإنسان في تأمله يحس بأنواع من عجائب صنع الله جل وعلا وتقديره للأشياء وأنه جعل الإنسان متدرجًا في الكمالات العلمية والإدراكية ليحس بأنواع قدرة الله ﷻ، وأنواع ما مدّ الله به الإنسان مما سخر له في السماء وفي الأرض.

والليل اسم لما بين غروب الشمس إلىٰ طلوع الشمس، والنهار اسم لما بين طلوع الشمس إلىٰ غروب الشمس، وهٰذا في قسمة اليوم والليلة إلىٰ نهار وإلىٰ ليل.

والتقسيم الثاني أن يكون الليل إلىٰ طلوع الفجر الصادق الثاني، والنهار من طلوع الشمس إلىٰ غروبها، ويكون ما بينهما هو الصباح أو السَّحَر أو ما أشبه ذلك.

وتفسير الليل والنهار بهٰذا وذاك يختلف خاصة في تفسير الليل معه كثير من الأحكام، ومن فهم بعض النصوص، مثل نزول الله جل وعلا إلىٰ سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر، وفي رواية أخرىٰ قال: «لِنِصْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ» ومن أهل العلم من قال: إنها الرواية الصحيحة، ويكون المراد نصف الليل الآخر؛ لأن الثلث أقل، ومنهم من نظر وقال: النبي ﷺ قال في بعض الأحاديث: ثلث الليل، وفي بعضها: نصف الليل؛ علىٰ اعتبار اختلاف التفسيرين في المراد بالليل فيما تعرفه العرب، فمن العرب من يجعل الليل إلىٰ طلوع الفجر، ومنهم من يجعله إلىٰ طلوع الشمس. وهٰذا عرضه شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع وقال: هو جمع مناسب. أو بنحو هٰذه العبارة.

أما النهار فسمي نهارًا لأن فيه شق الضياء لظلمة الليل، فالضياء يشق هٰذه الظلمة ويبددها، وأصل مادة النهر في هٰذا المعنىٰ، لهٰذا قال بعض علماء اللغة: إن النهر هو شقٌّ في استطالةٍ، وقد تكون الاستطالة في الحسيات وقد تكون الاستطالة في المعنويات، ولهٰذا قيل للماء الذي يشق الأرض ويجعل له مجرىٰ بقوة يشقها ويستطيل فيها؛ قيل لهٰذا: إنه نَهْر ونَهَر. وقيل أيضًا للكلام العنيف الذي يؤدب به: نهر، نهر فلان وانتهره نهرًا؛ لأن فيه هٰذه الاستطالة في الكلام التي معها تأديب.

كذلك الذبح «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ» أنهر يعني: أسال، وهٰذا لأجل أنه فيه شق مع استطالة.

لهٰذا يأتي النهار علىٰ هٰذا المعنىٰ، فإنه يصدق علىٰ ما بعد طلوع الفجر؛ لأنه يبدأ هنا شق الليل، وإذا طلعت الشمس تكون السماء ضياء ولا يحس المرء بمسألة النهر أو الدلالة اللغوية.

لهٰذا الأظهر عندي في هٰذا الخلاف أن النهار من جهة اللغة اسم لما بعد طلوع الفجر، وأنه كاليوم، فيقال: يوم وليلة، أو ليل ونهار؛ لأنه كما في هٰذه الآية قال: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ ﴾ فجعل الليل يدخل في النهار والنهار يدخل في الليل، وهٰذا يدل علىٰ أنه ليس ثم إلا قِسمان.

قال بعدها: ﴿ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ﴾ ذات الصدور المقصود بها ما في الصدور، كلمة (ذات) كما هو ظاهر جاءت في القرآن مضافة كما في قوله: ﴿ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾، وكما في قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾ [الأنفال: ١]، وأشباه ذلك، وهٰذا هو الذي أتىٰ في اللغة أنها تستعمل مضافة، وكما قال الصحابي:

وَذَاكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَىٰ أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ذات الإله.. وذات الصدور.. وذات بيننا.. ونحو ذلك، فهي تستعمل في اللغة مضافة.

وأما استعمالها منقطعة عن الإضافة بأن يقال: الذات، فهو استعمال ليس بقوي في اللغة، وإن كان له شهرة في الاستعمال.

المقصود أن (ذات الصدور) هنا في قوله جل وعلا: ﴿ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ﴾ تعني: ما تُخفي الصدور، وهو سبحانه كما أنه يعلم ما يلج وما يخرج، ويعلم ما ينزل وما يصعد؛ فأيضًا ما في هٰذه النفس التي لا يطلع أحد علىٰ ما فيها هو جل وعلا عليم بها، عليم بالسر وعليمٌ بما هو أخفىٰ من السر، عليمٌ بما يتلجلج في الصدر حتىٰ من الأفكار والآراء والأوهام والظنون، ولهٰذا يُجزي العبدَ الصالح عن حسن ظنه وهو عمل خفي، عمل في ذات الصدور، ويجزي العبد الصالح علىٰ عباداته القلبية من التوكل والإنابة القلبية وحسن الظن به جل وعلا، ومحبته سبحانه، وهٰذا كله فيما داخل الصدر، فما في داخل الصدر قد يكون وبالًا علىٰ صاحبه، وقد يكون رفعةً لصاحبه، والله سبحانه هو العليم بذات الصدور.. نقىٰ الله جل وعلا ضمائرنا وأنفسنا من كل ما يشينها، وألزمها بكل ما يزينها، إنه جوَاد كريم.

حديث التربة حديث أبي هريرة المعروف في «صحيح مسلم»: قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خَلَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ التُّربةَ يومَ السَّبتِ، ..». فجعل الخلق في سبعة أيام.

هٰذا الحديث عند العلماء موقوف علىٰ أبي هريرة، ولا يصح رفعه، بل هو شاذ، فجعلوه شاذًّا من جهة

الرواية ومن جهة الدراية؛ من جهة الرواية لها بحثها المعروف، لكن من جهة الدراية قالوا: إن الله جل وعلا جعل خلق السَّمٰوات والأرض في ستة أيام، وهٰذا الحديث فيه سبعة، ومن أهل العلم من نظر إليه من جهة أخرىٰ وقال: إن الحديث فيه الخلق التفصيلي، ومعلوم أن هٰذا غير الخلق الأصلي؛ لأن الخلق الأصلي قبل مجيء الأيام، إنما جاءت الأيام بعد الخلق، فيكون المراد بحديث أبي هريرة هنا أنه خلق تفصيلي؛ جعل الله جل وعلا التربة يوم السبت، والأشجار كذا، والجبال كذا، فهٰذا نحا إليه بعض أهل العلم وجعلوه صحيحًا؛ لأن الحديث في «صحيح مسلم»، قالوا: لا وجه لشذوذه؛ لا من حيث الرواية ولا من حيث الدراية، ولكن يشكل علىٰ هٰذا قول الله جل وعلا في آية سورة فصلت: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾، تقدير الأقوات وجعل الرواسي فيها أدخله الله جل وعلا في الأربعة أيام التي هي من الستة أيام التي خلق فيها السَّمٰوات والأرض، وفي حديث أبي هريرة جعلها من السبعة أيام.

ولهٰذا التفسير الثاني له حظ من النظر، لكن الأول هو المشهور عند العلماء، وهو الأولىٰ بالاعتماد عليه؛ لأن الحديث لا يصح مرفوعًا بل هو شاذ، وإنما هو موقوف علىٰ أبي هريرة، وقد يكون أخذه باجتهاد أو من أهل الكتاب أو ما أشبه ذلك.

***

الدرس الثالث

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

أَمَرَ تَعَالَىٰ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، وَالدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ عَلَىٰ ذَلِكَ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَحَثَّ عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ أَيْ مِمَّا هُوَ مَعَكُمْ عَلَىٰ سَبِيلِ الْعَارِيَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي أَيْدِي مَنْ قَبْلَكُمْ ثُمَّ صَارَ إِلَيْكُمْ، فَأَرْشَدَ تَعَالَىٰ إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ مَا اسْتَخْلَفَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ فِي طَاعَتِهِ، فَإِنْ يَفْعَلُوا وَإِلَّا حَاسَبَهُمْ عَلَيْهِ وَعَاقَبَهُمْ لِتَرْكِهِمُ الْوَاجِبَاتِ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ سَيَكُونُ مُخَلَّفًا عَنْكَ، فَلَعَلَّ وَارِثَكَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فِيهِ، فَيَكُونَ أَسْعَدَ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْكَ، أَوْ يَعْصِيَ اللهَ فِيهِ فَتَكُونَ قَدْ سَعَيْتَ فِي مُعَاوَنَتِهِ عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، سَمِعْتُ قَتَادَةَ يُحَدِّثُ، عَنْ مُطَرِّف -يَعْنِي بْنَ عَبْدِ الله بن الشخير- عن أبيه قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر]، يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي! وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟».

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ وَزَادَ: «وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ تَرْغِيبٌ فِي الْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَةِ،

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ ؟ أَيْ: وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالرَّسُولُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ وَيُبَيِّنُ لَكُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ؟ وَقَدْ رَوَيْنَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ فِي أَوَائِلِ شَرْحِ «كِتَابِ الْإِيمَانِ» مِنْ «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟» قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قَالُوا: فَالْأَنْبِيَاءُ. قَالَ: «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟». قَالُوا: فَنَحْنُ؟ قَالَ: «وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ وَلَكِنْ أَعْجَبُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا قَوْمٌ يجيؤون بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ

بِمَا فِيهَا».

وَقَدْ ذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ هٰذا فِي أَوَّلِ سُورَةِ «الْبَقَرَةِ» عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الْبَقَرَة: ٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [الْمَائِدَة:٧]. وَيَعْنِي بِذَلِكَ: بَيْعَةَ الرَّسُولِ ﷺ.

وَزَعَمَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْمِيثَاقُ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ، وَهُوَ مَذْهَبُ مُجَاهِدٍ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أَيْ: حُجَجًا وَاضِحَاتٍ، وَدَلَائِلَ بَاهِرَاتٍ، وَبَرَاهِينَ قَاطِعَاتٍ، ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أَيْ: مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ والآراء الْمُتَضَادَّةِ إِلَىٰ نُورِ الْهُدَىٰ وَالْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾ أَيْ: فِي إِنْزَالِهِ الْكُتُبَ وَإِرْسَالِهِ الرُّسُلَ لِهِدَايَةِ النَّاسِ، وَإِزَاحَةِ الْعِلَلِ وَإِزَالَةِ الشُّبَهِ.

وَلَمَّا أَمَرَهُمْ أَوَّلًا بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ قَدْ أَزَالَ عَنْهُمْ مَوَانِعَهُ، حَثَّهُمْ أَيْضًا عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ. فَقَالَ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: أَنْفِقُوا وَلَا تخشَوا فَقْرًا وَإِقْلَالًا فَإِنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُمْ فِي سبيله هو مالك السَّمٰوات وَالْأَرْضِ، وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُهُمَا، وَعِنْدَهُ خَزَائِنُهُمَا، وَهُوَ مَالِكُ الْعَرْشِ بِمَا حَوَىٰ، وَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ [سَبَإٍ]، وَقَالَ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النَّحْل:٩٦] فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ أَنْفَقَ، وَلَمْ يَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ سَيُخْلِفُهُ عَلَيْهِ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، حق الحمد وأوفاه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا..

أما بعد؛ فأسأل الله جل وعلا أن يرحمني وإياكم برحمته التي وسعت كل شيء، وأن يجعل القرآن نورا في قلوبنا، وأن يمن علينا بالفقه في الدين، وبالعلم بالتأويل، كما نسأله سبحانه أن يثبت العلم في قلوبنا وأن يبارك لنا في أعمالنا وأعمارنا إنه علىٰ كل شيء قدير.

في هٰذه الآيات من سورة الحديد يقول الله جل وعلا: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ يأمر الله جل وعلا من آمن بأن يؤمن، خاطب المؤمنين بقولـه: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ومعلوم أن المخاطَبين بهٰذا الأمر هم من أهل الإيمان بالله ورسوله؛ لأن حقيقة الإيمان هي الإيمـان بـالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، وهي الإيمان بأركان الإيمان الستة، فأمره جل وعلا للمؤمنين بالإيمان يقتضي شيئين:

الأول: أن يحققوا كمال الإيمان بحسب الوُسع.

والثاني: أن يداوموا ويثبتوا علىٰ مقتضىٰ الإيمان وثمرة الإيمان.

لهٰذا ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ قال في تفسيرها: (أَمَرَ تَعَالَىٰ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، وَالدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ عَلَىٰ ذَلِكَ وَالِاسْتِمْرَارِ).

وهٰذا قد جاء في غير موضع في القرآن؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾[النساء: ١٣٦]، وكذلك في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾[الأحزاب: ١]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها الأمر لمن هو مُمتثِلٌ للأمر، فالنبي ﷺ هو سيد المتقين وأُمر بالتقوىٰ، وهٰذا يتبع قاعدة في اللغة أن فعل الأمر إذا أُمر به مَن هو متحقق به، يعني كان قائمًا فقيل له: قم، أو يقرأ وقيل له: اقرأ، أو كان يطعم فقيل له: اطعم أو كل، أو كان يمشي فقيل له: امشِ ونحو ذلك؛ إذا كان متصفًا بهٰذا الوصف، فأَمره بما اتصف به فإن هٰذا يفيد في اللغة شيئين:

الأول: أن يحقق الأكمل من الوصف، يعني أن يرتقي فيه إلىٰ وجه الكمال.

الثاني: أن يثبت ويداوم علىٰ مقتضىٰ ذلك.

وهٰذا التحليل اللغوي ذكره ابن كثير فيما سمعت كتفسير منثور دون ذكر ما يدل عليـه مقتضـىٰ اللغـة؛ لذلك قوله جل وعلا: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ هو أمرٌ بتحقيق الإيمان علـىٰ الوجـه الأكمـل، وأمـرٌ بالثبـات علىٰ ذلك والاستمرار علىٰ ما يدل عليه الإيمان، وما هي ثمرة الإيمان ؟ ثمـرة الإيمـان هـي الإنفـاق في سبيل الله؛ لهٰذا قال جل وعـلا بعـدها: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾، هٰـذه إحـدىٰ ثمـرات الإيمـان؛ لأن الإيمان يخلِّص العبد من الشح؛ الشح بأنواعه، ومنه الشح بالمال، الشـح يـأتي للإنسـان في أشـياء كثيـرة ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحشر]، فإذا تخلَّص من الشح فإنه يفلح ويكـون قـد حقق الإيمان.

وفي الحقيقة لا يحصل كثير من الذنوب والمعاصي والتقصير في الواجبات إلا بالشح، وإنما أهلك من كان قبلكم الشُّحّ؛ الشح بالنفس عن الطاعة، وبالوقت، والشح بالمال، والشح بالجهاد، والشح بأنواع ما يكون المرء قادرًا عليه مما يأمر الله به، هٰذا يحمله علىٰ ترك الطاعة وعلىٰ الذنب والمعصية؛ لهٰذا قال جل وعلا هنا: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فأمر بالإيمان، وأمر بالإنفاق.

وحقيقة مقتضىٰ الإيمان أنه يدعو إلىٰ النفقة؛ ولذلك قال بعدها: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾، فقوله سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فيه أمرٌ بالإنفاق، والإنفاق في سبيل الله مما عند المرء من المال هٰذا من أعظم القربات؛ فمنه إنفاق الواجب بالزكاة وأداء الحقوق؛ كالنفقة علىٰ الأهل والعيال، والنفقة في الجهاد الواجب، وأشباه ذلك، ومنه الإنفاق الواجب، والإنفاق المستحب؛ كل ذلك دليل الإيمان من صاحبه؛ لتخليصه من الشح ومن حب المال والأثرة فيه.

قال سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ كلمة (مستخلفين) مستخلف يعني أنه خليفة فيه لمن كان قبله، يعني خلف من قبله فيه، وهٰذا كما فهم ابن كثير، وهو ظاهر أنه فيه إشارة وتنبيه علىٰ أن هٰذا المال خلفت غيرك فيه، وسيخلفك أيضًا غيرك فيه، وهٰذا تنبيه عظيم إلىٰ أنه ليس من مالك إلا ما أنفقت؛ كما جاء في السنة: «هَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أو تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟».

وهٰذا يدل علىٰ أن المرء ليس له من ماله إلا ما أمضاه وتصدق به وأنفقه في الخير، وأما الباقي فهو مال سيخلَف فيه.

قال: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ والاستخلاف لا يعني أنه استخلاف عن الله جل وعلا، بل الخلافة قد تكون عمن كان قبله، هٰذا يخلف هٰذا، وهٰذا يخلف هٰذا... إلىٰ آخره.

قال جل وعلا بعدها: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾، وحرف الفاء هنا في قوله: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ علىٰ بابه؛ ترتيب، لكن ترتيب النتائج علىٰ المقدمات؛ لأنه تارة تأتي الفاء للترتيب الحضوري، أو للترتيب الزمني، أو ترتيب الخاص بعد العام، أو التفصيل بعد الإجمال، أو ترتيب النتيجة علىٰ المقدمة السبب، يعني ترتيب الجمل، ولها استعمالات معروفة في بابها.

قال: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ (مِن) هنا ليست تبعيضية، وإنما هي بيانية؛ يعني آمنوا منكم يا أهل الإيمان

بالله ورسوله، آمنوا وحققوا الإيمان بالإنفاق، وهٰذه الآية في قوله: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ﴾ دليلٌ علىٰ أن (من) في مثل هٰذا الاستعمال تكون للبيان وليست للتبعيض، ففيها الرد علىٰ الشيعة والرافضة، الذين زعموا أن قوله تعالىٰ في آخر سورة الفتح: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾.

فقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ هو كقوله في هٰذه الآية: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ﴾، فـ(من) هنا للبيان، والقرآن في الاستعمال يفسر بعضه بعضًا: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ﴾ ليس بعض أهل الإيمان لهم أجرٌ كبير وبعض أهل الإيمان ليس لهم أجرٌ كبير، بل كل مؤمن آمن وأنفق فهو موعود بهٰذا الوعد الكريم بأن له أجرًا كبيرًا.

قال سبحانه: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾ و(أجر) نُكِّر هنا لفائدة في علم المعاني، وهي أن التنكير يكون للتفخيم، ويكون أيضًا للتشويق، يعني أن هٰذا الأجر غير معهود وليس بموصوف الوصف الذي تعهدونه، ففخمه بقوله: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ ﴾، ثم أيضًا وصف هٰذا الأجر بقوله: ﴿كَبِيرٞ ﴾، والأجر هو ما يكون في مقابلة العمل، والله جل وعلا سمىٰ ما يعطي العبد أجرًا لأنه في مقابلة عمله، ولكنه ليس في مقابلته علىٰ ما يُعهَد من الأجر بين الإنسان والإنسان؛ وذلك لأن الله جل وعلا هو الذي وفق للعمل، وهو الذي يثيب عليه، وليس من أحدٍ سيدخل الجنة إلا برحمة الله جل وعلا، ومع ذلك فقد سماه الله جل وعلا أجرًا؛ لأنه عوض عن العمل الذي بذله الإنسان، فالله جل وعلا لا يضيع أجر من أحسن عملا.

ثم قال بعدها: ﴿كَبِيرٞ ﴾ وكبير فعيل من الكبر، وهو في القرآن وفي اللغة أيضًا يأتي علىٰ نوعين: كبر في الذوات، وكبر في النعوت والصفات.

أما كبر الذوات فكثير؛ هٰذا الشيء كبير يعني أنه ضخم.

وأما كبر الصفات فهٰذا جاء في القرآن في مواضع أيضًا كثيرة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص]، وكقوله هنا مثلًا: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾ يعني في صفته.

وقد يكون أن هٰذا الأجر يشمل أجرًا بالأعيان وأجرًا بالصفات، فيكون الكبر راجعًا إلىٰ كبر الأعيان التي منَّ الله بها علىٰ ابن آدم، وكذلك كبر في الصفات، ولهٰذا الجنة عرضها كعرض السماء والأرض، هٰذا كبر في الذات، أي كبر في الأعيان، كذلك النعيم في نفسه يعني أنواع النعيم وأعيان النعيم موصوفٌ

أيضًا بالكبر في الذوات في كثير من الأدلة، وأيضًا ثَمَّ كبر في الصفات، يعني أن أكبر ما يكون في هٰذه الصفة هو لأهل الإيمان ولأهل الإنفاق.

ومن المهم لطالب العلم أن يطالع في التفسير دائمًا كتب علم المعاني في البلاغة؛ لأن كتب علم المعاني في البلاغة تعطي دلالات في التقديم والتأخير، والتنكير والتعريف، والتنوين وعدم التنوين، أيضًا التنوين له دلالة؛ تارة ينون ويقطع عن الإضافة، وتارة لا ينون ويضيف، فهٰذا معروف في علم المعاني من علوم البلاغة.

ثم قال جل وعلا بعدها: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ قال: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ يعني ما لكم لا تحققون الإيمان وتَثْبُتون عليه وتكملون مقتضاه ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾، والحال أن الرسول بنفسه هو الذي تولىٰ دعوتكم، وهو الذي أمركم بذلك، وقد أُيد بالآيات والبراهين التي علىٰ مثلها يؤمن البشر، وعلىٰ مثلها يسعىٰ العبد الصالح في إكمال إيمانه، لهٰذا قال: ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾، ودعوة الرسول للإيمان قد تكون لتحصيل أصله في مَن لم يكن مؤمنًا، وقد تكون في تحصيل مرتبته لمن كان مسلمًا وأراد بدعوته للإيمان أن يحقق الإيمان، يعني مرتبة الإيمان بعد الإسلام، مثلما جاء في الأعراب: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[الحجرات:١٤]، وقد تكون لتحقيق كمال الإيمان في من كان محصِّلًا للإيمان.

فإذن دعوة الرسول للإيمان تختلف باختلاف حال المدعوّ، ولهٰذا يصح أن يقال للمسلم وللمؤمن، بل ولكامل الإيمان: إنه يُدعىٰ إلىٰ الله ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾، وليس فقط يرشد إلىٰ الخير بل يدعىٰ.

والدعوة إلىٰ الله تكون للجميع، تكون لغير المسلم بالإسلام، وللمسلم بأن يكون مؤمنًا، وللمؤمن بأن يكمل الإيمان، وهكذا في التقوىٰ يُدعَىٰ مَن ليس من المتقين إلىٰ أن يكون متقيًا بالإسلام، ثم الدعوة إلىٰ مراتب التقوىٰ... وهكذا، فإذن الدعوة بابها واسعٌ في ذلك.

قال جل وعلا: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وهٰذا فيه نوع من التوبيخ لهم، فلأي شيء تتخلفون عن مقتضيات الإيمان والرسول دعاكم بنفسه ومعه من الآيات والبراهين ما يوجب أن يؤمن به الإنسان، وأن يحقق كمال الإيمان بحسب وسعه، وأيضًا الميثاق قد أُخِذ، فلأي شيء ترغبون في التخلف؛ لهٰذا قال بعدها: ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾.

والرسول في هٰذا المقام هو النبي، وكما هو معلوم في القاعدة أن النبي والرسول إذا تفرقا اجتمعا، الرسول هنا هو بمعنىٰ النبي، فالآيات التي فيها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ بمعنىٰ يا: أيها الرسول، فتارة يأتي بالرسول وتارة يأتي بالنبي، فدلالتهما عند الافتراق واحدة، وهٰذا مأخذ من قال: لا فرق بين النبي والرسول أنه نظر إلىٰ الاستعمال؛ لأن الرسول يأتي ويراد به النبي، والنبي يأتي ويراد به الرسول، فليس ثَم فرق بينهما في الاستعمال، لكن كما نذكر في شروح العقيدة أن الرسول والنبي بينهما فرق؛ لقول الله جل وعلا في سورة الحج: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[الحج:٥٢]، فقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ يدل علىٰ الفرق ما بين الرسول والنبي؛ لأنه عطف بالواو، فلو كانا متحدين لم يكن للمغايرة هنا معنًىٰ. كذلك المغايرة هنا مغايرة صفات أيضًا، فصفة النبوة غير صفة الرسالة.

قال: ﴿ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ اللام هنا هي لام (كي)، يعني: لأجل ولكي تؤمنوا بربكم.

وذكر الربوبية في هٰذا المقام مفيد في أن هٰذا المال إنما هو من نعم الرب، فالربوبية عطاء وإنعام من الرب للمربوب، ومن المالك المتصرف المعبود إلىٰ المملوك المتصرف فيه، وهٰذا المال لم يستحقه الإنسان، وإنما جاء باستخلاف وأنعم عليه به ربه، لهٰذا في قوله: ﴿ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ فيه إشارة إلىٰ مسألة الإنفاق، ربط ما بين مسألة الإيمان ومسألة الإنفاق بذكر الربوبية فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ الرب الذي أنعم، أنعم بأي شيء ؟ بنعم كثيرة؛ منها نعمة الإنفاق.

قال بعدها: ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ أخذ الميثاق هنا للعلماء فيه تفسيران:

الأول: أن الميثاق مخصوصٌ بالصحابة، يعني وقد أخذ ميثاقكم أيها الصحابة، وهٰذا الميثاق هو البيعة؛ لأنه إذا خص بالصحابة فهو البيعة، وهٰذا تفسير الأكثر من علماء التفسير؛ لأن الخطاب هنا لصحابة النبي عليه الصلاة والسلام.

وقال آخرون من أهل التفسير والعلم: إن أخذ الميثاق هنا يراد به أخذ الميثاق علىٰ كل إنسان، وهو الميثاق المذكور في آية الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[الأعراف]، فيعني به الميثاق الأول عند هؤلاء.

والظاهر والأرجح هو التفسير الأول، وهو أن المقصود بالميثاق هو البيعة والميثاق الذي أخذه النبي

ﷺ من الصحابة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ﴾ [المائدة: ٧].

قال جل وعلا بعدها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ يعني: الله جل جلاله هو الذي ينزل علىٰ رسوله المتصف بالعبودية آيات بينات ظاهرات واضحات في الدلالة علىٰ الإيمان، والدلالة علىٰ حق الله جل وعلا، والدلالة علىٰ التقوىٰ، فقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ﴾ فيه التنبيه علىٰ أن هٰذه النبوة وإنزال الكتاب والآيات هي منحةٌ من الله لهٰذا الرسول المتصف بالعبودية، وليست هي قوة يأخذها هو بنشاطه أو رياضته أو إدراكه، وهٰذا هو الذي تدل عليه آيات القرآن، وفي كلها رد علىٰ الفلاسفة، وعلىٰ الضالين في باب النبوات الذين يقولون: إن النبوة مكتسَبة؛ بل النبوة في الحقيقة إنما هي منحة من الله جل وعلا، والله يصطفي من الملائكة رسولًا ومن الناس، وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[الأنعام:١٢٤]، وقال جل وعلا في سورة الزخرف: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ ﴾، فهي رحمة وهبة ومنحة من الله جل وعلا لعبده الذي اصطفاه لحمل الرسالة وليكون نبيًّا.

والآيات جمع آية، والآية في اللغة هي الدليل والعلامة، يعني الدليل الذي يوصل إلىٰ المدلول بوضوح وجلاء بلا مرية ولا خفاء، وهٰذا هو المعنىٰ في اللغة، وهو أيضًا في استعمال القرآن، قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨ ﴾ [البقرة]، يعني إذا أتىٰ التابوت فهو الدليل الذي لا مِرية معه ولا خفاء، وكلُّ آية من آي القرآن سُميت آية لأن فيها الدليل الذي لا خفاء معه علىٰ أن المتكلم بهٰذا القرآن هو الله جل وعلا، وعلىٰ أنه حجة للنبي عليه الصلاة والسلام، نعم لم يقع الإعجاز بآية، وإنما جاء الإعجاز بالقرآن كله، أو بعشر سور أو بسورة من القرآن، ولم يقع الإعجاز بالآية الواحدة، لكنها دالة علىٰ أن المتكلم بهٰذا هو الرب جل وعلا، وهنا قال جل وعلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾ يعني دلائل واضحة توصل إلىٰ المراد والمدلول بلا مرية ولا شك في ذلك، ومع هٰذا فإنه وصفها بكونها آيات بيِّنات.

وفي التنكير في قوله: ﴿ءَايَٰتِۭ ﴾ أيضًا ما يفيد التفخيم وتعظيم شأن هٰذه الآيات.

أما وصفه للآيات أو نعته للآيات ببينات، فالبينات جمع بينة، والبينة تجمع شيئين:

الأول: أنها في نفسها واضحة جلية لا خفاء فيها، فتقول: هٰذا أمر بيِّن، وهٰذه مسألة بينة إذا كانت في نفسها ظاهرة جلية، لا خفاء في فهمها ولا في إدراكها، فهي ظاهرة جلية، وهٰذا في اللغة وفي القرآن كله علىٰ هٰذا النحو.

والثاني: أن بينة تفيد أنها تبين الشيء، فهي في ذاتها واضحة جلية، وأيضًا لغيرها موضحة ومجلية، ولهٰذا وصف القرآن بأنه كتاب مبين؛ فقال جل وعلا: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وكون القرآن مبينًا يعني أنه بين في نفسه، وأيضًا هو مبين للأشياء ومظهر وموضح للأشياء الخفية وللطريق السليم من الطريق الغلط؛ لأن كلمة مبين تكون من (أبان) اللازم و(أبان) المتعدي، فأبان تكون لازمة: أبان الشيءُ؛ يعني ظهر، فلا تكون الهمزة فيها للتعدية، فتقول: بان الشيء وأبان الشيءُ، وأيضًا أبان تكون متعدية: أبان الشيءَ، يعني: هٰذا الأمر أو هٰذه الكلمة أو هٰذا المقال أبان الأمر.

والقرآن موصوف بأنه بيّن في نفسه، والآيات بينة واضحة جلية، لا لبس فيها ولا غموض في نفسها، وأيضًا فيه البيان للشيء الآخر والإيضاح للطرق المختلفة، وبيان طريق الهدىٰ من طريق الضلال؛ قال جل وعلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ والظلمات في القرآن أنواع:

الظلمة الأولىٰ: ظلمة الشرك، فالشرك له ظلمة في القلب، ونورها توحيد الله جل وعلا.

والظلمة الثانية: ظلمة الجهل، ونورها العلم بالله تعالىٰ.

والظلمة الثالثة: ظلمة البدعة، والخروج عن الصراط؛ صراط النبي ﷺ والاقتداء به، ونورها باتباع السنّة.

والظلمة الرابعة والأخيرة: ظلمة الهوىٰ والمعصية والشهوة، ونورها بتقوىٰ الله جل جلاله والخوف من لقائه.

فهٰذه أنواع الظلمات في القرآن؛ ظلمة الشرك الأكبر والأصغر والخفي، كلٌّ بحسب حاله، ونورها بالإخلاص لله جل وعلا، وتلحظ أنه وحد النور هنا وقال: ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾، وكذا في آيات أخرىٰ: ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب: ٤٣]؛ لأن التوحيد وهو النور الأول يثمر علىٰ حقيقته نور العلم، ونور السنة، ونور التقوىٰ، كذلك التقوىٰ علىٰ حقيقتها تثمر نور التوحيد الذي هو أعظم أسباب

التقوىٰ، ونور العلم، ونور السنة... وهكذا، فكل نور من هٰذه الأنوار هو في الحقيقة مع النور الآخر ودال عليه، بل هي جميعًا نور واحد للتلازم بينها.

ولهٰذا ما أعظم الحاجة إلىٰ أن يتخلص الإنسان من الظلمات.. ولا بد لكل قلب من نوع من أنواع الظلمة؛ قل أو كثر، ولهٰذا الإيمان والتقوىٰ والتوحيد والعلم أسباب لتعظيم النور في القلب، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور]، فثَمّ ارتباط عظيم بين الرسالة والقرآن والإسلام في أن كلًّا منها نور، بل الله جل وعلا نور، ومن أسمائه النور، ورسوله ﷺ نور، وكتابه النور؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء]، ودينه نور، وهكذا.

وعلىٰ هٰذا مَن عَظُم نوره في الدنيا بتحصيله وكسبه عظُم نوره في الآخرة يوم تزل القَدَم ويوم تفترق النفوس والقلوب بين ناجٍ وبين مُكردَس. أسأل الله جل وعلا أن يجنبنا الخذلان، وأن يَمُنّ علينا بالنجاة.

قال سبحانه بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ هٰذا فيه تأكيد علىٰ أن الأمر بالإيمان، والأمر بالتقوىٰ، والأمر بالإنفاق؛ أن هٰذا من آثار رحمة الله جل وعلا ورأفته بكم، فليس لحاجته جل وعلا دعا إلىٰ الإنفاق، وليس لحاجته جل وعلا دعا إلىٰ لإيمان، بل دعا إلىٰ ذلك سبحانه لأنه بكم رءوف رحيم.

واللام في قوله ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ مؤكدة، ورءوف رحيم هٰذه أخبار مستأنفة، يعني: رءوف: خبر أول، ورحيم: خبر ثانٍ، سواء جاءت بالتعريف أو بالتنكير، فالأصح في مثل هٰذا أنها أخبار، ولا يقال: هٰذا وصف لهٰذا، مع أنه لو قيل لكان له مخرج صحيح، وهو أن الاسم يُعنىٰ به الذات والصفة، وهو من جهة الذات بعض الأسماء نعت لبعض؛ لأجل دلالة الاسم علىٰ الذات، لكن الأحسن من جهة نحْوية وعَقَدية دائمًا في مثل هٰذا أن تكون خبرًا أول وخبرًا ثانيًا، فكلها أخبار وكلها استئناف.

***

الدرس الرابع

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أَيْ: لَا يَسْتَوِي هٰذا وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ كَفِعْلِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ الْحَالُ شَدِيدًا، فَلَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ حِينَئِذٍ إِلَّا الصِّدِّيقُونَ، وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ فَإِنَّهُ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ ظُهُورًا عَظِيمًا، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا؛ وَلِهٰذا قَالَ: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾

وَالْجُمْهُورُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بالفتح هاهنا فَتْحُ مَكَّةَ. وَعَنِ الشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّ الْمُرَادَ بالفتح هاهنا: صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ، وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لِهٰذا الْقَوْلِ بِمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، حَدَّثَنَا زُهَير، حَدَّثَنَا حُمَيد الطَّوِيلُ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كَلَامٌ، فَقَالَ خَالِدٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: تَسْتَطِيلُونَ عَلَيْنَا بِأَيَّامٍ سَبَقْتُمُونَا بِهَا؟ فَبَلَغَنَا أَنَّ ذَلِكَ ذُكر لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «دَعُوا لِي أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ -أَوْ مِثْلَ الْجِبَالِ- ذَهَبًا، مَا بَلَغْتُمْ أَعْمَالَهُمْ».

وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْلَامَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الْمُوَاجِهِ بِهٰذا الْخِطَابِ كَانَ بَيْنَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ وَفَتْحِ مَكَّةَ، وَكَانَتْ هٰذه الْمُشَاجَرَةُ بَيْنَهُمَا فِي بَنِي جَذيمة الَّذِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بَعْدَ الْفَتْحِ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: «صَبَأْنَا، صَبَأْنَا»، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: «أَسْلَمْنَا»، فَأَمَرَ خَالِدٌ بِقَتْلِهِمْ وَقَتْلِ مَنْ أُسِرَ مِنْهُمْ، فَخَالَفَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُمَا. فَاخْتَصَمَ خَالِدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

وَالَّذِي فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفه».

وَرَوَىٰ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ وَهْبٍ: أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ، عن زيد بن أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِعُسْفَانَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ تحقرُونَ أَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ» فَقُلْنَا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ أَقُرَيْشٌ؟ قَالَ: لَا وَلٰكِنْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا». فَقُلْنَا: أَهُمْ خَيْرٌ مِنَّا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ جَبَلٌ مِنْ ذَهَبٍ فَأَنْفَقَهُ، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِكُمْ وَلَا نَصِيفه، أَلَا إِنَّ هٰذا فَضْلُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

وَهٰذا الْحَدِيثُ غَرِيبٌ بِهٰذا السِّيَاقِ، وَالَّذِي فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ رِوَايَةِ جَمَاعَةٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ

أَبِي سَعِيدٍ -ذَكَرَ الْخَوَارِجَ-: «تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» الْحَدِيثَ. وَلَكِنْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ هٰذا الْحَدِيثَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، فَقَالَ:

حَدَّثَنِي بْنُ الْبَرْقِيِّ، حَدَّثَنَا بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، أَخْبَرَنِي زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ التَّمَّارِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ تُحَقِّرُونَ أَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ». قُلْنَا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قُرَيْشٌ؟ قَالَ: «لَا وَلَكِنْ أَهْلُ الْيَمَنِ، لِأَنَّهُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وَأَلْيَنُ قُلُوبًا». وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: «هُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، أَلَا إِنَّ الْإِيمَانَ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةَ يَمَانِيَةٌ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هُمْ خَيْرٌ مِنَّا؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ جَبَلٌ مِنْ ذَهَبٍ يُنْفِقُهُ مَا أَدَّى مُدَّ أَحَدِكُمْ وَلَا نَصِيفَهُ». ثُمَّ جَمَعَ أَصَابِعَهُ وَمَدَّ خِنْصَرَهُ، وَقَالَ: «أَلَا إِنَّ هٰذا فضلُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ »

فَهٰذا السِّيَاقُ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ الْحُدَيْبِيَةِ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مَحْفُوظًا كَمَا تَقَدَّمَ، فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أُنْزِلَ قَبْلَ الْفَتْحِ إِخْبَارًا عَمَّا بَعْدَهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ «الْمُزَّمِّلِ» -وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ-: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الْآيَةَ [الْمُزَّمِّل: ٢٠] فَهِيَ بِشَارَةٌ بِمَا يُسْتَقْبَلُ، وَهٰكَذَا هٰذه وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يَعْنِي الْمُنْفِقِينَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ، كُلُّهُمْ لَهُمْ ثَوَابٌ عَلَى مَا عَمِلُوا، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمْ تَفَاوُتٌ فِي تَفَاضُلِ الْجَزَاءِ كَمَا قَالَ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النِّسَاء]. وَهٰكَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» وَإِنَّمَا نَبَّهَ بِهٰذا لِئَلَّا يُهدرَ جَانِبُ الْآخَرِ بِمَدْحِ الْأَوَّلِ دُونَ الْآخَرِ، فَيَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ ذَمَّهُ؛ فَلِهٰذا عَطَفَ بِمَدْحِ الْآخَرِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، مَعَ تَفْضِيلِ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ؛ وَلِهٰذا قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ أَيْ: فَلِخِبْرَتِهِ فَاوَتَ بَيْنَ ثَوَابِ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِقَصْدِ الْأَوَّلِ وَإِخْلَاصِهِ التَّامِّ، وَإِنْفَاقِهِ فِي حَالِ الْجُهْدِ وَالْقِلَّةِ وَالضِّيقِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ» وَلَا شَكَّ عِنْدَ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنَّ الصِّدِّيقَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَهُ الْحَظُّ الْأَوْفَرُ مِنْ هٰذه الْآيَةِ، فَإِنَّهُ سَيِّدُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ سَائِرِ أُمَمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُ أَنْفَقَ مَالَهُ كُلَّهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، عَزَّوَجَلَّ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ نِعْمَةٌ يَجْزِيهِ بِهَا.

وَقَدْ قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ الْبَغَوِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هٰذه الْآيَةِ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ

الشُّرَيْحِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الثَّعْلَبِيُّ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ حَامِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ أَيُّوبَ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْفَزَارِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ آدَمَ بْنِ عَلِيٍّ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعَلَيْهِ عَبَاءَةٌ قَدْ خَلَّها فِي صَدْرِهِ بِخِلَالٍ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَالِي أَرَىٰ أَبَا بَكْرٍ عَلَيْهِ عَبَاءَةٌ قَدْ خَلَّها فِي صَدْرِهِ بِخلال؟ فَقَالَ: «أَنْفَقَ مَالَهُ عليَّ قَبْلَ الْفَتْحِ» قَالَ: فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: اقْرَأْ عليه السلام، وَقُلْ لَهُ: أَرَاضٍ أنت عني في فقرك هٰذا أم ساخط؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ اللهَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: أَرَاضٍ أنت عَني في فقرك هٰذا أم ساخط؟» فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ، رضي الله عنه: أَسْخَطُ عَلَىٰ رَبِّي عز وجل؟ إِنِّي عَنْ رَبِّي رَاضٍ.

هٰذا الْحَدِيثُ ضَعِيفُ الْإِسْنَادِ مِنْ هٰذا الْوَجْهِ.(١)

وَقَوْلُهُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَقِيلَ: هُوَ النَّفَقَةُ عَلَىٰ الْعِيَالِ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ، دَخَلَ فِي عُمُومِ هٰذه الْآيَةِ؛ وَلِهٰذا قَالَ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [الْبَقَرَةِ] أَيْ: جَزَاءٌ جَمِيلٌ وَرِزْقٌ بَاهِرٌ-وَهُوَ الْجَنَّةُ-يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قَالَ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ، حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ خَلِيفَةَ، عَنْ حُمَيْدٍ الْأَعْرَجِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هٰذه الْآيَةُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ اللهَ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ». قَالَ أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: فَنَاوَلَهُ يَدَهُ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي-وَلَهُ حَائِطٌ فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا-قال: فجاء أبو الدحداح فنادها: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ. قَالَتْ: لَبَّيْكَ. فَقَالَ: اخْرُجِي، فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي، عز وجل-وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ: رَبح بَيْعُكَ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ. وَنَقَلَتْ مِنْهُ مَتَاعَهَا وَصِبْيَانَهَا، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ فِي الْجَنَّةِ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ». وَفِي لَفْظٍ: «رُبَّ نَخْلَةٍ مُدَلَّاةٍ

---

(١) يروي البغوي عن شيخه عن الثعلبي، وما تفرد به الثعلبي في تفسيره غرائب وضعاف ومناكير، ولكن ما ذكر هنا لا يستبعد في فضل أبي بكر؛ لأنه أعظم صاحب وأرفع درجة لما ذكر الحافظ ابن كثير هنا من إيمانه وصديقيته وإنفاقه رضي الله عنه وأرضاه.

عُرُوقُهَا دُرٌّ وياقوت لأبي الدحداح في الجنة».

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه، اللَّهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا توفيقا وهدىٰ يا أرحم الراحمين.

أما بعد؛

قال جل وعلا: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ والفتح اختلف فيه أهل العلم المفسرين وغيرهم هل المراد به فتح مكة أم صُلح الحُدَيْبِية، وصلح الحديبية هو فتحٌ بنص القرآن، والله جل وعلا يقول: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح].

ففتح مكة أيضًا كان فتحًا لمكة ولما جاورها، لكن من تأمل وجد أن صلح الحديبية وما فيه من معاني الفتح والنصرة للمؤمنين وإعزاز الدين بما حصل لهم من ثمرات أعظم مما في فتح مكة من حيث هو، ولهٰذا صار الأظهر أن الفتح المراد به في هٰذه الآية هو صلح الحديبية، وأن الذين أسلموا ما بين صلح الحديبية وفتح مكة لا يستوون مع من كان قبل ذلك.

والصحابة رضوان الله عليهم درجات، كل الصحابة لهم فضل ولهم سابقة لصحبتهم رسول الله ﷺ، وما قاموا به من الإيمان والتصديق والجهاد والنصرة، لكنهم درجات.

وهٰذه الآية فيها تفضيل بعض الصحابة علىٰ بعض من حيث الجنس، وهٰذا حق، فأفضل الصحابة من حيث الجنس هم المهاجرون؛ لأنهم الأخص بالسبق والنصرة في حال العُسرة وفي حال الضيق، فصدقوا برسول الله ﷺ وآمنوا به، وهم أول من آمن، فهم الأفضل علىٰ جنس من أتىٰ بعدهم، ثم الأنصار بعامة، ومن شهِد بدرًا أفضل ممن لم يشهد بدرًا، ومن أسلم وآمن وجاهد وأنفق قبل الصلح أفضل ممن أسلم وآمن وأنفق من بعد، وكذلك من أسلم قبل فتح مكة هو أفضل ممن أسلم بعد فتح مكة، وهؤلاء درجات من حيث الجنس، يعني أن هؤلاء الطبقة الأولىٰ أفضل من الطبقة الثانية، وهكذا، لكن لا يمنع أن يكون بعض من تأخر، لا من حيث التعيين، لكن من حيث الإمكان، لا يمنع أن يكون أفضل ممن قبله، لكن من حيث العموم والجنس فمن سبق من حيث الطبقات أفضل ممن أتىٰ بعد ذلك.

ولهٰذا كانت هٰذه الآية نصًّا في فضيلة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي فضيلة المهاجرين الذين منهم العشرة المبشرون بالجنة في مجلس واحد، وهٰذا فيه رد علىٰ الرافضة وعلىٰ من نحا نحوهم في القدح في طائفة من المهاجرين؛ إما بقدحٍ كفري، أو بقدح في إيمانهم من جهة النفاق أو ما شابه ذلك.

والأحاديث التي ذكرها ابن كثير في تفسيره ظاهرة في تفضيل من سبق منهم؛ كعبد الرَّحمٰن بن عوف علىٰ من تأخر، ولو كان من قريش، كخالد بن الوليد ونحوه؛ بل خص النبي ﷺ الأولين باسم الصحبة فقال لما حصلت الخصومة وهي خصومة في أمر دين، لا في أمر دنيا بين عبد الرَّحمٰن بن عوف وخالد بن الوليد رضي الله عنهما: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» وهٰذا في المفاضلة ما بين صحابي وصحابي، وصار بينهم هٰذا البون العظيم وهٰذا الفرق الكبير الذي فيه لو أنفق المتأخر مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مد أحد السابقين ولا نصيفه.

والمقصود من هٰذا بعض الصحابة، وهم السابقون ممن أسلم قبل الفتح، أو السابقون من المهاجرين.

وكذلك منه قوله ﷺ: « دَعُوا لِي أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ أَوْ مِثْلَ الْجِبَالِ ذَهَبًا مَا بَلَغْتُمْ أَعْمَالَهُمْ ». ونحو ذلك.

فخصهم بهٰذا الاسم، وكأن المتأخر ليس حقيقة بهٰذا الاسم، مع أنه صاحب من أصحاب رسول الله ﷺ، وهٰذا يدل علىٰ أن السابقة من حيث هي، السابقة في التصديق والإيمان والنصرة؛ مُعتبَرة في كل زمان وفي كل مكان؛ لأن للسابق من الإيمان والتصديق والإنفاق في ساعة عسرة وفي ساعة لا يظن أنه سينزل النصر، أو أنه سيعظم الأمر، هٰذا له من الفضل والمنزلة والرفعة من جهة الإيمان والتصديق والقيام بحقوق الله والمسارعة في الجهاد ما ليس للمتأخر، وهٰذا أصل أيضًا جعله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في توزيع المال من بيت المال وإعطاء الأعطيات، حيث قدم أهل بدر وأجزل لهم، ثم مَن بعدهم، فجعلهم طبقات، كلٌّ بسابقته، فالسابقة لا شك لها ما ليس لغيرها.

قال جل وعلا: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾

وقوله: ﴿مِنكُم﴾ (من) هنا بيانية، يعني من الصحابة، والفتح هٰذا كما ذكرتُ هو فتح الحديبية، ولا يستوي من أنفق من قبله ومن أنفق بعده.

وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾ الحسنىٰ في القرآن هي العاقبة الحسنة، وأعظم العواقب الحسنة وأرفعها

الجنة، ولهٰذا صار في عدد من الآيات ذكر الجنة باسم الحسنىٰ، وهنا في قوله: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يَحتمل أن يكون المراد بالحسنىٰ الجنة، أو يكون المراد بالحسنة العاقبة الحسنة العظمىٰ في الدنيا وفي الآخرة.

والقرآن فيه كثير من الآيات التي تدل علىٰ أن الحسنىٰ هي الجنة، وجاء فيها أيضًا حديث صحيح؛ قال جل وعلا مثلًا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] يعني الجنة، و(الزيادة) كما جاء في الحديث الذي في الصحيح: هي النظر إلىٰ وجه الله الكريم، نسأل الله ذلك بمنّه وفضله وكرمه، ويقابل الحسنىٰ: السوءىٰ، كما يقابل الحسنة: السيئة، يعني العاقبة السيئة في الدنيا وفي الآخرة، وتشمل العاقبة بالحسنىٰ ما صار لهم من الأمر في الأمصار وتولي الإمارات والذكر ونشر الدين، وأن الله جل وعلا جعل الظهور وتولي الأمر لإنفاذ أمره وإنفاذ الدين في يد هؤلاء وفي يد هؤلاء، يعني في يد السابقين وفي يد مَن تأخر أيضًا.

ثم إن الإنفاق والأعمال الصالحة لا شك تحتاج إلىٰ نية صالحة في كل عمل يُعمل، ولهٰذا قال جل وعلا في آخر الآية: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾، وهٰذا فيه تخويف للعباد في كل أمر يعملون من أن يكون لهم فيه قصد غير قصد وجه الله جل وعلا، والله سبحانه لخبرته بالعباد أيضًا فاضل بينهم، وجعل السابقين سابقين وفضلهم ومنّ عليهم، وجعل المتأخرين أيضًا يتأخرون في إسلامهم ويتأخرون في إيمانهم، وهٰذا لحكمة ولعلمه جل وعلا وخبرته بعباده، ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

والله سبحانه هو الذي يمنّ وهو الذي يتفضل، لهٰذا من تأمل في حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وحقيقة السابقة، وحقيقة توفيق العبد إلىٰ أي عمل من الأعمال الصالحة، قل أو كثر، صغر أم عظم؛ فإنه يلحظ منة الله جل وعلا عليه، والمنة معناها العطاء بلا سبب ولا مقابل؛ بل محض تفضل، يعني العبد يُقبِل ويسعىٰ في السبب؛ لكن الله جل وعلا يمنّ بأن يعطي أكثر مما يبذل العبد، ويتفضل بلا موجب من العبد عليه.

فاختيار الله جل وعلا السابقين من المهاجرين ثم من الأنصار ممن أسلم قبل الفتح؛ هٰذا اختيار فيه مِنَّة من الله جل وعلا عليهم، ولهٰذا مَن عاداهم ومن ضاد جماعة من المهاجرين أو من السابقين كطائفة من الفرق الضالة فهو في الحقيقة رادٌّ لفضل الله جل وعلا، وفي هٰذا عدم رضاه بما منّ الله جل وعلا علىٰ

هؤلاء السابقين، وهٰذا في الحقيقة يدخل في أعظم أنواع الحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، فأعظم الحسد حسد السابقين الأولين إذ كانوا عربًا أو كانوا من قريش. وإن طائفة من أهل العصر اليوم ومن قبلهم ممن فيهم شائبة نفاق يطعنون في قريش أو في الصحابة من قريش؛ في تصرفاتهم وأعمالهم، وذلك من جهة القصد والإرادة؛ لأنهم إنما أرادوا الدنيا ولم يريدوا الآخرة، وإنما أرادوا ذكر قريش ودولة قريش دون غيرها، فجعلوا المسألة عصبية، وجعلوا المسألة قَبَلِية، وأهل الإيمان يعلمون أن الله جل وعلا لم يجعل قريشًا مفضلة لكونها قريشا، وإنما الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.

وقريش نفسها بأفرادها منها مَن آمن وصدق فعَلَتْ درجته، ومنهم من تأخر فنزلت درجته، ومنهم الكافر الفاجر الذي هو من أشد أهل النار عذابًا؛ كحال صناديد قريش ومن مات علىٰ الكفر، والمسلمون الأولون من المهاجرين إنما قاموا لله جل وعلا وحده.

وهٰذا القدح في الصحابة أخذ مآخذ شتىٰ؛ فتارة يكون في طائفة من الصحابة من المهاجرين؛ كأبي بكر الصديق، وكعمر، وكعثمان رضي الله عنهم، وتارة يكون في طائفة من المهاجرين، أو في جنس الصحابة ومقاصدهم.

فيجب علىٰ طلبة العلم في هٰذه الأمر جهاده بنصرة الصحابة رضوان الله عليهم، ونصرة مقاصدهم وتوضيحها وأنهم ما قاموا إلا لله جل وعلا، وأنهم لم يغتصبوا أمرًا وإنما كان ذلك إنفاذًا لأمر الله وما فهموه من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، هٰذا هو الواجب في كل زمان ومكان، وهو دفاع عن حَمَلَة الشريعة ومن جعل الله جل وعلا لهم الحق علىٰ المؤمنين بعامة.

وهٰذه الآية لا شك فيها رفع لدرجة السابقين؛ لقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ ﴾ و(درجة) جاءت تمييز لأفعل التفضيل، هنا جاءت منكرةً، والقصد منها عند البلاغيين التفخيم، فلم تُحدّ بدرجة من الدرجات ولم تُوصف بوصف، فجعلت منكرةً للتفخيم والتعظيم، فما حد هٰذه الدرجة التي يعظمون بها ويرتفعون بها ؟ لا حد لها؛ تفخيمًا لهم وتعظيمًا.

ثم قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ والعمل الصالح في الشريعة جعل ثوابه في ألفاظه من جنس ما تعاهده الناس في إثابة بعضهم بعضًا، فجعل الله جل وعلا أمر العبادة والجهاد تجارةً، وسماه أيضًا كسبًا، وسمىٰ الثواب أجرةً وأجرًا ونحو ذلك، وهنا سمىٰ تقديم العبد

بعض ما عنده قرضًا؛ لأنه سيُوفى ذلك القرض أكمل ما يكون عند لقاء الله جل وعلا، وهٰذا فيه تنشيط حقيقي للعباد في ذكر هٰذه الألفاظ من حيث هي، حيث إنها كسب، أجر، تجارة، قرض، وما شابه ذلك، فالله جل وعلا يخاطب العباد بما به نشاط أنفسهم في الخير وإقبالهم علىٰ الخير، مع كون هٰذا جميعًا حقيقة وليس تأويلًا أو مجازًا، سواء التجارة أو الكسب أو الأجرة، فهٰذه الألفاظ جميعًا علىٰ الحقيقة عند أهل السنة والجماعة؛ التجارة والإقراض والبيع، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ [التوبة: ١١١]، وكذلك الكسب والأجر، هٰذه كلها علىٰ الحقيقة.

وهناك طائفة من الضالين من الفلاسفة والعقلانيين يقولون: سُمي أُجرةً وكسبًا وتجارةً لتنشيط النفس، ولكن هٰذا في الحقيقة ليس كذلك، وإنما في الجميع يكون الثواب تفضّلًا من الله جل وعلا، وهٰذا باطل؛ فإن الله جل وعلا وعَد ووعْدُه الحق والصدق.

وفي حديث أبي الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه تبرع بحائط له فيه ستمائة نخلة لما نزلت هٰذه الآية: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ ﴾ فنشط لهٰذا اللفظ؛ لفظ القرض، فهٰذه الألفاظ فيها تنشيط العباد وكذلك لها أصل شرعي ترجع إليه.

المقصود أن هٰذه الألفاظ دائرة أيضًا علىٰ طريقة أهل السنة والجماعة لأنه لا تأويل فيها أو لا مجاز، بل هي حقيقة قرض، وهي حقيقة بيع، وهي حقيقة كسب، وهي حقيقة أُجرة وأجر... وهكذا، وهٰذا كله مِنَّة من الله جل وعلا وتفضُّل، فهو الذي يوفق للعمل، ثم هو الذي يؤجر عليه، وهو الذي يوفق للتجارة الصالحة؛ تجارة الآخرة، ثم هو الذي يوفي، وهو جل وعلا أوفىٰ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يصدق عبده ما وعده إياه.

والمضاعفة في قوله: ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ ﴾ قد تكون بجعل الشيء بمثليه، أو بعشرة أضعافه، أو بسبعمائة ضعف، أو بأكثر إلىٰ أضعاف كثيرة، فالصدقة يختلف الناس فيها؛ فمن الناس من تُضاعف له الحسنة بمثلها، والحسنة بعشر أمثالها، والحسنة بمائة ضعف، وبسبعمائة ضعف... إلىٰ أضعاف كثيرة.

وهل هٰذا التفاوت في التضعيف لاختلاف الفضل من الله جل وعلا، أو اختلاف حال العبد؛ حال الإنفاق من حيث الصدق والنية الحسنة، أو لاختلاف عمل العبد وإحسانه في الجملة ومقامه ؟

الأرجح عند أهل العلم الثالث الأخير، وهو أن التفضيل تضعيف باختلاف مقام العبد في الإيمان

والتصديق بجملة، لا في حال التصدق فقط، ولا في فضل الله جل وعلا مجرد دون عملٍ من العبد. يعني أن العباد يختلفون؛ فالصديقون يُضاعف لهم أكثر من غيرهم، ومن الناس من يضاعف له إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ ألف ضعف، ومنهم من يضاعف أقل من ذلك... وهكذا.

وهٰذا يوجه مناسبة ورود هٰذه الآية بعد الآية السابقة؛ فإن التضعيف لما كان في هٰذه الآية منكرًا غير محدد، واختلف باختلاف العبد في صديقيته وإيمانه وجهاده؛ فلا شك أن من أنفق من قبل الفتح وأقرض الله جل وعلا من قبل الفتح، أو ما كان قبل ذلك في مكة حال الفقر وحال الضعف الشديد وحال الحصار، وأشباه ذلك؛ لا شك أن مضاعفة الأجر له وثواب الصدقة وثواب الإنفاق أعظم ممن يأتي بعد ذلك، فمناسبة مجيء هٰذه الآية لما قبلها يرجح القول الذي ذكرتُ في وجه التفضيل ووجه المضاعفة.

إذن ففي قوله هنا: ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ التضعيف هٰذا مختلف باختلاف الناس من جهة الإيمان وصديقيتهم، فهٰذا ينفق نفقة، وآخر ينفق نفقة، وهٰذا النفقة تضاعف له إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، إلىٰ آلاف الأضعاف، والآخر أقل منه؛ لأجل ما هو عليه من حال الإيمان والصدق والتصديق وسلامة القلب مما يشوهه في عقيدته ويقينه وصدقه مع الله جل وعلا.

[أسئلة]

سؤال: أحسن الله إليك، بالنسبة لألفاظ التجارة والكسب وغيرها، هل هٰذا يتعلق عند الضلّال بأفعال العباد ؟

جواب: هٰذه الألفاظ تدخل في مذهب أهل التخييل والوهم، وهم الذين يقولون: إن كثيرًا من القرآن إنما هو للتنشيط؛ تنشيط الناس، لكن ليس ثم حقيقة، ما في القرآن من وعود أو ما في دار الآخرة من ميزان ومن صراط وأصناف العذاب التفصيلي أو أصناف النعيم التفصيلي، كل هٰذا عندهم لتنشيط الناس، فالفلاسفة وأهل الوهم والتخييل عندهم أن هٰذه كلها أخيلة لأجل أن ينشط العبد للطاعة، لهٰذا وصلوا بعد ذلك إلىٰ أن المتحقق بالحكمة الذي عرف مآلات الأمور قد لا تصلح له العبادة مثلما تصلح لأفراد الناس؛ لأن أفراد الناس عندهم علىٰ حسب كلامهم إنما ينشطون ليصلوا إلىٰ اليقين، أو ليصلوا إلىٰ معرفة الحكمة، أو إلىٰ المقامات العالية، كما عند الصوفية، فإذا وصل إليها أحد الناس فإن هٰذه الأشياء تكون عنده تحصيل حاصل.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

ولهٰذا تجد مأخذ الذين فسروا القرآن تفسيرًا باطنيًّا مثل الفلاسفة وأولو الصوفية أن قلبوا كل الألفاظ التي ظاهرها بحث النفوس إلىٰ أشياء تتعلق بالحقائق، ففي الحقيقة هم ينفون كل ما في القرآن من حقائق في الدار الآخرة، من جهة الحساب أو من جهة الثواب الفاضل أو تفاصيل ما في الجنة، وتفاصيل ما في النار من العذاب، أعاذنا الله من ذلك.

فالأصل كما هو معلوم أن تؤخذ الألفاظ علىٰ حقيقتها، وهٰذا لا فرق فيه بين ألفاظ الصفات أو الألفاظ الغيبية، أوكذلك الألفاظ الظاهرة، ولا يحمل اللفظ علىٰ غير ظاهره المتبادر منه إلا إذا دل دليل علىٰ ذلك، والأمور الغيبية لا شك أنها غيبية فيجب التسليم بها علىٰ ذلك، وألفاظ الكسب والتجارة والبيع مع الله جل وعلا والبيعة أيضًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠]، وكذلك لفظ الكسب والأجر والقرض وأشباه ذلك كلها علىٰ الحقيقة، لا يحمل شيء منها علىٰ المجاز، بل هي علىٰ ظاهرها وعلىٰ حقيقتها، فكل ما في القرآن علىٰ الحقيقة.

وطبعًا الحقيقة تارة تكون حقيقة أفراد وتارة تكون حقيقة تركيبية، أفراد يعني لفظ واحد يكون حقيقة فلا يصرف اللفظ إلىٰ غيره، يعني إلىٰ المجاز، وتارةً يكون اللفظ في نفسه حقيقته في التركيب وليس حقيقته في نفس الدلالة مثل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] هٰذا حقيقته في التركيب، وفيه إثبات صفة اليد لله جل جلاله كما هو معلوم.

كذلك قوله جل وعلا: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[النحل] ففي قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ ما يقال: هٰذا فيه إثبات صفة الإتيان لله جل وعلا، فلما قال: ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ عُلم أن الإتيان هنا إتيان قدرة واقتدار قوة وعقوبة، هٰذا علىٰ الحقيقة وليس مجازًا، وإنما هي حقيقة تركيبية.

كذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[الفرقان: ٤٥]، المقصود رؤية قدرة الله وعجائب صنعه جل وعلا، وليس هٰذا تأويلًا أو مجازًا، وإنما هٰذا حقيقة تركيبية، وهٰذا هو الذي جعل طائفة يدعون المجاز غير ناظرين إلىٰ الحقيقة التركيبية والظاهر الذي يدل عليه الكلام بتركيبه لا بأفراده، فزعموا مثلًا أن قوله جل وعلا: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] مجاز، وهٰذه كلها علىٰ الحقيقة، لكن ليست حقيقة اللفظ، وإنما حقيقة التركيب، حقيقة الجملة، وهٰذا هو الذي يجب أن يُحمَل

القرآن عليه.

وفي الغيبيات يكون الخلاف راجعًا إلىٰ سنة وبدعة، لكن إذا كان الخلاف في الأمور الغير غيبية في مثل التفسير فهٰذا يتنازع فيه المفسرون والعلماء، كما في قوله: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ هل هو مجاز أم لا، فهٰذا ليس من الأمر الغيبي، نقول مثلًا: الأصوب أنه ليس مجازًا، وإنما هو علىٰ الحقيقة كما جاء، ولكن ليس فيه مخالفة في العقيدة؛ لأنه ليس بأمرٍ عقدي، وإنما إذا فَسّر أمر غيبي بما ينافي حقيقته الظاهرة فهنا يدخل الخلاف مع المعتزلة.

أما غير الغيبيات في تفسير بعض الآيات فإذا قال بعض العلماء: فيها مجاز؛ ففي الأمر راجح ومرجوح وفيه اجتهاد، وليس من أمور الخلاف في العقيدة.

فلا بد أن ينتبه الطلاب في الجامعات إلىٰ أنه إذا أتىٰ مثلًا بعض المشايخ أو المدرسين وقال: هٰذه الآية فيها مجاز، فبادر بالإنكار لأجل أن القول بالمجاز قول المعتزلة وقول أهل البدع، فهٰذا ليس بصحيح، فقول أهل البدع والمعتزلة في آيات الغيب؛ وآيات الصفات، والجنة والنار والصراط والميزان، والحساب، والملائكة، والسماء، يعني ما غاب عنا، أما فيما ظهر فهٰذا فيه راجح ومرجوح.

وأكثر العلماء يثبتون المجاز في القرآن في غير نصوص الغيب، وقليل من العلماء ينكرون المجاز، وهو الصواب؛ لأنه لا مجاز، وفي الأمور الغيبية هٰذا ظاهر، وكذلك الأمور الأخرىٰ، فلا مجاز فيها، وإنما كل ما ادُّعي فيه المجاز فله جواب واضح صحيح في اللغة حقيقة.

والمجاز أصلًا في تعريفه عند أهله يقضي عليه، فهم عرفوا المجاز بقولهم: إن المجاز نقل اللفظ من وضعه الأول إلىٰ الوضع الثاني لعلاقة بينهما، فهٰذا المجاز، والتأويل غير المجاز طبعًا، التأويل بحث آخر، التأويل: صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلىٰ غيره لقرينةٍ، فالمجاز فيه نقل من وضعٍ أول إلىٰ وضعٍ ثانٍ لعلاقة، والعلاقات في المجاز تتنوع؛ قد تصل إلىٰ ثلاثين علاقة عند أهلها مذكورة في كتب البلاغة وكتب أصول الفقه، وهي معروفة، أما التأويل ففيه لفظ القرينة، وفيه صرف وليس: نقل، صرفه عن ظاهره إلىٰ غيره، ليس إلىٰ وضع ثانٍ، بل إلىٰ غيره، أي معنًىٰ آخر، لكن لقرينة، فالمجاز كما يظهر لك هو نقل من وضعٍ أول إلىٰ وضعٍ ثانٍ، ففي تعريفه اعتمدوا علىٰ أن العرب وضعت للألفاظ دلالات، وهٰذه نظرية خيالية، وهي أن العرب اجتمعت وجعلت للأشياء وضعًا أول، سواء من الأسماء أو من

الأفعال، فهٰذا شبه خيال، فكُتب الوضع التي ألفت معتمدة علىٰ هٰذا الأساس، فهٰذا في الحقيقة محض خيال، العرب لغتهم لم تنزل عليهم نزولًا، فالعربية متداخلة مع غيرها، فنشأت اللغة بالتداخل مع لغات أخرىٰ، وأصل اللغات هي تعليم الأسماء لآدم﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة:٣١]، وليس هناك أحد يدعي بيقين أن آدم عُلم الأسماء بالعربية ثم بعد ذلك نشأت اللغات كلها من اللغة العربية، ليس كذلك، وإنما عُلم آدم الأسماء بلغةٍ الله أعلم بها، ثم نشأت لغات كثيرة، هٰذه اللغات نشأت بالتداخل، وولدت لغة وماتت لغة... إلىٰ آخره، ففي تفصيل نشأة اللغات بحث آخر.

لكن مبنىٰ المجاز علىٰ نقل اللفظ من وضع أول إلىٰ وضع ثانٍ لعلاقة، كيف وجد الوضع الأول ؟! ولهٰذا إذا بحثت مع أي مؤول للصفات أو أي مؤول للأمور الغيبية أو مدعٍ المجاز، فقال: هٰذا مجاز، فاسأله: ما الوضع الأول؟ وكيف عرفت أنه الوضع الأول؟ وهل العرب اجتمعت علىٰ أن هٰذا هو الوضع الأول أو غيره ؟

خذ مثلًا لفظ الجناح، قال الله جل وعلا: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾[الإسراء: ٢٤] لفظ الجناح هنا قالوا: استعارة، وهي نوع من أنواع المجاز عندهم، قالوا: استعارة من الطائر؛ لأن الجناح للطائر. لكن هٰذا مثلما ذكرتُ مبني علىٰ أنهم وضعوا لهٰذا الجزء من الطائر فقط اسم الجناح، لكن هٰذا ليس حقيقة الأمر؛ لأن لفظ الجناح هو مرتبط بمعنىٰ كلي وهو الجنوح، فلو قال قائل من المحققين في اللغة، وهو رأي موجود، بأن أصل اللغة العربية كليات ومعان تفرعت عنها الأسماء الأخر لما كان بعيدًا، فلفظ الجناح مأخوذ من الجنوح أصلًا، والجنوح من الميل.

فإذن هٰذا الجنوح هو المعنىٰ الكلي، تارة يكون في جزءٍ كما في الطائر سمي جناحًا لأن فيه هٰذا الميل وفيه الارتفاع، أيضًا اليد نفسها جناح؛ كما قال الله جل وعلا في قصة موسىٰ: ﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ ﴾ [القصص: ٣٢]، فاليد جناح، هل هي استعارة فنجعل جناح الطائر هو الأصل ثم بعد ذلك يد الإنسان تكون مستعارة من الطائر؟! كذلك من الممكن أن نقول العكس! نقول: لماذا بدأت العرب بالطائر قبلُ ؟! ولماذا ما بدأت بالإنسان فيكون جناح الإنسان علىٰ الحقيقة وجناح الطائر علىٰ الاستعارة! لكن هٰذا ما أحد قال به.

إذن فالمسألة في مسائل المجاز والحقيقة تلفت إلىٰ ما في كتب المجازيين وبعض كتب التفسير الذين

تأثروا بالبلاغيين في مباحث المجاز والحقيقة؛ لأنهم بنوا علىٰ علوم؛ علم الوضع، فهٰذه العلوم أصلًا في نشأتها فيها نظر، فيها نظر في التعريفات التي فيها، ولهٰذا ما تستقيم، حتىٰ إن الحذاق من البلاغيين قالوا: إن هٰذه الكتب مثل الوضع وغيره أفسدت الذوق، فأرجعت اللغة إلىٰ قوانين، واللغة ليست قوانين، اللغة ذوق، اللغة وُجدت قبل القوانين، فحتىٰ النحو بالرغم من أنه قُنن إلا أنه ليس ثَم اتفاق علىٰ تقنينه، أقول مثلًا: فهل كل ما في كتب النحو صحيح ؟ هل كل ما في مدرسة البصريين صحيح ؟ ليس كذلك، هناك مسائل كثيرة غلط فيها البصريون والصواب فيها مع أهل الكوفة، وهناك مسائل نحاة بغداد فيها أحذق، وهناك مسائل نحاة الأندلس فيها أحذق من جميع المدارس، فمدارس النحو الكبيرة كما هو معلوم أربعة: البصريون والكوفيون، وهاتان متقدمتان، ثم نشأ منهما مدرسة في بغداد، يعني مدرسة ابن جني ومن معه، وفيها اختلاف عن المدرستين، ومدرسة الأندلس وهي مستقلة. المقصود هل كل ما قنن في النحو صحيح ؟ ليس كذلك.

إذن وجود النصوص عندنا ووجود اللغة كذوق وكاستعمال يكشف عن هٰذه القوانين أو هٰذه القواعد، وهٰذه وسائل، حتىٰ آل الأمر إلىٰ أن تُخطَّأ بعض الآيات نحوًا لأجل النحو، مثلما قال أبو عمرو في بعض الآيات: هٰذه غلط فيها الكاتب. وهي قراءة متواترة! فهٰذا منهج يخل بكل القيم وكل الأصول.

المقصود أن تفهم أن في التفسير كلما قرب عهد المفسر من السلف كان أنقىٰ في التعبير وفي صواب التفسير، وكلما كان أبعد واستخدم علوم الآلة مثل النحو والبلاغة وأشباه ذلك فإنها قد تزيده وضوحًا وتقريرًا، وقد ينصرف بعلوم الآلة في التفسير عن الصواب ويذهب إلىٰ أشياء لا قوة فيها ولا دليل ظاهر فيها.

سؤال: من استحضر بنيته فعل أبي بكر.

جواب: هٰذا لا أثر له، الذي له أثر في التضعيف وزيادة الأجر إخلاصه حين النفقة، وصدقه وإيمانه ويقينه وحسن توكله علىٰ الله جل وعلا، هٰذا من جهة.

والجهة الثانية: هٰذا المال الذي أنفقه ماذا يمثل بالنسبة لماله ؟ هل هو قليل بالنسبة لماله أو كثير ؟ كما جاء في الحديث: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ» يعني: درهم صار أفضل عند الله من مائة ألف، قالوا: وكيف ؟ قال: «كانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا » يعني نصف ماله «وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَىٰ عُرْضِ مالِهِ فأَخَذَ مِنْهُ مائةَ ألفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بها»، له مال كثير فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها، فتكون

النفقة أفضل حسب حال صاحبها في إيمانه وحاله حين الإنفاق وقدر ما أنفق وما يرجو به، والله جل وعلا بما تعملون خبير.

***

الدرس الخامس

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَصَدِّقِينَ: أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يسعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي عَرصات الْقِيَامَةِ، بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ قَالَ: عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ يَمُرُّونَ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، مِنْهُمْ مَن نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ، وَمِنْهُمْ مَن نُورُهُ مِثْلُ النَّخْلَةِ، وَمِنْهُمْ مَن نُورُهُ مِثْلُ الرَّجُلِ الْقَائِمِ، وَأَدْنَاهُمْ نُورًا مَن نُورُهُ فِي إِبْهَامِهِ يتَّقد مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً ورواه بن أبي حاتم وبن جَرِيرٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُضِيءُ نُوره مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ عَدن أَبْيَنَ وَصَنْعَاءَ فَدُونَ ذَلِكَ، حَتَّىٰ إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُضِيءُ نُورُهُ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ»

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ حُصَين، عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ جُنَادة بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ عِنْدَ اللهِ بِأَسْمَائِكُمْ، وَسِيمَاكُمْ وحُلاكم، وَنَجْوَاكُمْ وَمَجَالِسِكُمْ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قِيلَ: يَا فُلَانُ، هٰذا نُورُكُ. يَا فُلَانُ، لَا نُورَ لَكَ. وَقَرَأَ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: لَيْسَ لِأَحَدٍ إِلَّا يُعْطَىٰ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا انْتَهَوْا إِلَىٰ الصِّرَاطِ طُفِئَ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ أَشْفَقُوا أَنْ يُطْفَأَ نُورُهُمْ كَمَا طُفِئ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالُوا: رَبَّنَا، أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ يَعْنِي: عَلَىٰ الصراط.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدِ اللهِ ابْنُ أَخِي ابْنِ وَهْبٍ، أَخْبَرَنَا عَمِّي عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ جُبَيْرٍ يُحَدِّثُ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَأَبَا ذَرٍّ يُخْبِرَانِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالسُّجُودِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بِرَفْعِ رَأْسِهِ، فَأَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ يَدِي وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ». فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَيْفَ تَعْرِفُ أُمَّتَكَ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ، مَا بَيْنَ نُوحٍ إِلَىٰ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: «أَعْرِفُهُمْ، مُحَجَّلون مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ غَيْرِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ يُؤْتَون كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ بِنُورِهِمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ

وَقَوْلُهُ ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: أَيْ وَبِأَيْمَانِهِمْ كُتُبُهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الْإِسْرَاء: ٧١].

وَقَوْلُهُ: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ: بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ، أَيْ: لَكُمُ الْبِشَارَةُ بِجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ وَهٰذا إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَىٰ عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْمُزْعِجَةِ، وَالزَّلَازِلِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأُمُورِ الْفَظِيعَةِ وَإِنَّهُ لَا يَنْجُو يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ اللهُ، بِهِ وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنِ عَمْرٍو، حَدَّثَنِي سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ: خَرَجْنَا عَلَىٰ جِنَازَةٍ فِي بَابِ دِمَشْقَ، وَمَعَنَا أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ، فَلَمَّا صَلَّىٰ عَلَىٰ الْجِنَازَةِ وَأَخَذُوا فِي دَفْنِهَا، قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ قَدْ أَصْبَحْتُمْ وَأَمْسَيْتُمْ فِي مَنْزِلٍ تَقْتَسِمُونَ فِيهِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَتُوشِكُونَ أَنْ تَظْعَنُوا مِنْهُ إِلَىٰ مَنْزِلٍ آخَرَ، وَهُوَ هٰذا -يُشِيرُ إِلَىٰ الْقَبْرِ- بَيْتُ الْوَحْدَةِ، وَبَيْتُ الظُّلْمَةِ، وَبَيْتُ الدُّودِ، وَبَيْتُ الضِّيقِ، إِلَّا مَا وَسَّعَ اللهُ، تَنْتَقِلُونَ مِنْهُ إِلَىٰ مُوَاطِنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّكُمْ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ حَتَّىٰ يَغْشَىٰ النَّاسَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ، فَتَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، ثُمَّ تَنْتَقِلُونَ مِنْهُ إِلَىٰ مَنْزِلٍ آخَرَ فَتَغْشَىٰ النَّاسَ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، ثُمَّ يُقَسَّمُ النُّورُ فَيُعْطَىٰ الْمُؤْمِنُ نُورًا وَيُتْرَكُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَلَا يُعْطَيَانِ شَيْئًا، وَهُوَ الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ، قَالَ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النُّورِ]، فَلَا يَسْتَضِيءُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ بِنُورِ الْمُؤْمِنِ كَمَا لَا يَسْتَضِيءُ الْأَعْمَىٰ بِنُورِ الْبَصِيرِ، وَيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ وَهِيَ خدعة الله التي خدع بها الْمُنَافِقِينَ حَيْثُ قَالَ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢]. فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي قُسِّمَ فِيهِ النُّورُ، فَلَا يَجِدُونَ شَيْئًا فَيَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِمْ وَقَدْ ضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ الْآيَةَ. يَقُولُ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَمَا يَزَالُ الْمُنَافِقُ مُغْتَرًّا حَتَّىٰ يُقَسمَ النُّورُ، وَيُمَيِّزُ اللهُ بَيْنَ والمؤمن المنافق.

ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ عُثْمَانَ، حَدَّثَنَا ابْنُ حَيْوَةَ، حَدَّثَنَا أَرْطَأَةُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ الْحَجَّاجِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: تُبْعَثُ ظُلْمَةٌ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ يَرَىٰ كَفَّهُ، حَتَّىٰ يَبْعَثَ اللهُ بِالنُّورِ إِلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَيَتْبَعُهُمُ الْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُونَ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

وَقَالَ العَوْفِي، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمَا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَمَا النَّاسُ فِي ظُلْمَةٍ إِذْ بَعَثَ اللهُ نُورًا فَلَمَّا رَأَي

الْمُؤْمِنُونَ النُّورَ تَوَجَّهُوا نَحْوَهُ، وَكَانَ النُّورُ دَلِيلًا مِنَ اللهِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَلَمَّا رَأَى الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَدِ انْطَلَقُوا اتَّبَعُوهُمْ، فَأَظْلَمَ اللهُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، فَقَالُوا حِينَئِذٍ: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فَإِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا. قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿ارْجِعُوا﴾ مِنْ حَيْثُ جِئْتُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ، فَالْتَمِسُوا هُنَالِكَ النُّورَ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، حق الحمد وأوفاه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ومصطفاه، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أما بعد؛ فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن علم العلم النافع ووفق للعمل الصالح وجنب الفتن ما ظهر منها وما بطن .

في هاتين الآيتين من سورة الحديد بشارة عظيمة وتخويفٌ كبير:

أما البشارة فهي لأهل الإيمان بأن الله جل وعلا يكرمهم أيما إكرام، وينزل السكينة والطمأنينة عليهم في العرصات، حيث يعطيهم الله جل وعلا النور الذي يسعىٰ بين أيديهم، ويعطيهم الكتب بأيمانهم، ويبشرهم في العرصات بأن لهم ذلك اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

وأما التحذيرٌ الكبير والتخويف والإنذار فهو للمنافقين والمنافقات الذين ما دخل نور الله جل وعلا إلىٰ قلوبهم؛ وذلك بأنهم يسلبون النور الذي به البصر يوم القيامة وبه الطمأنينة وبه السكينة بما يستقبلون من الأمر، فيسلبون النور ويخدعون بأن يقال: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾. فيرجعون فلا يجدون نورًا.

وفي قوله: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يكثر في القرآن أن يأتي أول الآية ظرف زمان؛ كقوله: ﴿يَوْمَ ﴾ هنا بدون عطف، أو ظرف زمان بحرف العطف الواو؛ كقوله مثلا: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾[الأحزاب:١٢]، ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾[المائدة: ١١٦]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾[البقرة: ٣٠] ونحو ذلك.

والعلماء في مثل هٰذا يعني قوله: ﴿يَوْمَ ﴾ في هاتين الآيتين وفي نحوهما اختلفوا هل هي معلقة بما سبق في الآية قبلها، أو هي ظرفٌ منصوب بالواقع فيه كتقدير الكلام: واذكر يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات.

فأما الوجه الأول يعني أن تكون معلقة بالآية قبلها ففي الآية قبلها قال جل وعلا: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ يعني تلك المضاعفة والأجر هي ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ و﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ يعني إنما يوفىٰ المؤمن الأجر إذا لقي الله جل وعلا يوم القيامة.

والوجه الثاني: أن يكون تقدير الكلام: واذكر يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات. ومعلوم أن هٰذا اليوم

الذي سيأتي لا يذكر باعتباره أنه قد وقع وانتهىٰ، وإنما يستقبل من الزمان وسيأتي، فكيف في مثله يسوغ التقدير بـ(اذكر)، أو في أمرٍ قد لم يُحضر؛ كتقدير (اذكر) مع (إذ) في مواضعها في القرآن: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]؟

قال العلماء: تقدير (واذكر إذ) يعني: واذكر حين قال ربك للملائكة، والتقدير في (اذكر) مع أن الأول فيما يستقبل من الزمان ولا يحضر، والآخر فيما مضىٰ من الزمان أيضًا ولم يحضر، تقديره قالوا: لفائدةٍ في البلاغة، وهي أن تستحضر التفاصيل وما خص الله جل وعلا في غير هٰذا الموضع مما سيكون ليكون أدعىٰ للإيقان ولفهم ما سيحصل أو ما حصل، فكأن القارئ الذي قال الله جل وعلا له: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾[البقرة:٣٠]، يعني: واذكر حين قال ربك؛ كأنه كان حاضرًا وإنما يتذكر شيئا رآه بعينه، وهٰذا فيه اليقين وفيه قوة التصديق، وفيه استحضار المرء لشيءٍ كأنه حضره؛ وذلك من قوة يقينه به وتصديقه له.

فإذا نظرت إلىٰ هٰذه الآية وقرأتها مرةً أخرىٰ وفي مواضعها مستحضرًا هٰذا المعنىٰ فإن المؤمن يكون عنده من حضور ما سيكون يوم القيامة مما قص الله جل وعلا في كتابه ما يكون معه التدبر واليقين بهٰذه الأخبار الغيبية.

قال جل وعلا: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ فعلىٰ التقدير الأول: وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ يَوْمَ تَرَىٰ، أو: فَيُضَاعِفَهُ لَهُ يَوْمَ تَرَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، فيكون ذكر سعي النور هٰذا من الأجر ومن المضاعفة التي جاءت في الآية قبلها، وعلىٰ الثاني: اذكر يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم.

وهنا قال: ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ والمراد بالإيمان هنا ما يشمل اسم الإسلام؛

فـ(أل) هنا هي الموصولة وتسبق اسم الفاعل واسم المفعول، ويكون اسم الفاعل أو المفعول هو الصلة، كما قال ابن مالك في الألفية في باب الاسم الموصول:

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةَ أَلْ ... وَكَوْنُهَا بِمُعْرَبِ الأَفْعَالِ قَلْ

ويعني بالصفة الصريحة اسم الفاعل واسم المفعول، وكما هو معلوم في موضعه: في الصفة المشبهة قولان لأهل العلم بالعربية. وهٰذا يعني تحقيق قول من قال من أهل العلم: إن اسم المؤمن إذا أفرد ولم يقترن باسم المسلم فهو كاسم الإيمان إذا جاء مفردًا دون اسم الإسلام، فإنه يُعنىٰ به الإسلام.

وهٰذا حاصله أن ﴿ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ يشمل المسلمين، فليس تخصيصًا لمن بلغ مرتبة الإيمان التي

هي قسيمةٌ لمراتب: الإسلام والإيمان والإحسان.. ومعنىٰ قسيمة: أحد الأقسام.

قوله: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ كلمة (يسعىٰ) هنا مع أن النور ملازم لهم وهم الذين يسعون، والنورُ لو سعىٰ وهم لم يسعوا لسبقهم كثيرًا، وربما تخلفوا عنه، لكن في هٰذا فائدة ونكتة في أن النور من شدة فرحه بالمؤمن فإنه يريد أن يسبقه إلىٰ الجنة وأن يسعىٰ بين يديه إكرامًا له حتىٰ يبلِّغه الجنة التي هي محل الطمأنينة.

والنور الذي يعطيه الله جل وعلا المؤمن من الذكور والإناث؛ هٰذا النور نور حقيقي، وهو كالبصيرة التي في القلب، يختلف فيها الناس؛ فمنهم من يكون نوره كما سمعتم في الآثار قويًّا، ومنهم من يكون أقل، ومنهم من يكون في إبهامه، ومنهم من يكون في قدمه... وهكذا، واختلاف النور باختلاف الإيمان واختلاف منزلة العبد في تحقيق الإيمان.. والإيمان والإسلام يتفاضلان، يعني ليس إيمان كل أحدٍ مساويًا لغيره، وليس إسلام كل أحدٍ أيضًا مماثلًا لغيره، ولهٰذا فاختلافهم في درجة الإسلام وهو استسلامهم لله بالتوحيد وانقيادهم له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وكذلك تفاوتهم في الإيمان الذي هو الإيمان بالله وملائكته... إلىٰ آخره؛ هٰذا بحسبه يكون اختلاف النور.

وهٰذا النور نورٌ مخلوق، وليس هو صفة الله جل وعلا التي اختص بها، بل هو نور مخلوق يعطاه المؤمن ليبصر موضعه، وليكون دليلًا علىٰ موضع الصراط؛ لأن جهنم قبلها وبينها وبين العرصات ظلمة عظيمة، هٰذه الظلمة لا يتجاوزها ويبصر موضع الصراط الذي هو موضع الطريق إلىٰ تجاوز دار الهوان والعذاب أعاذنا الله منها إلا من أوتي نورًا.

ولهٰذا يكرم الله جل وعلا أهل الإيمان بأنواع من الإكرام؛ منها النور وسرعة العبور علىٰ الصراط وأشياء متنوعة دلت عليها الآيات والأحاديث.

قال جل وعلا هنا: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ كلمة ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ للعلماء فيها عدة توجيهات؛ منها ما ذكره ابن كثير من قول الضحاك في قوله: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ أن تقديرها: وبأيمانهم كتبهم؛ كما قال جل وعلا في الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٧١].

والقول الثاني: أن ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ هو النور؛ لأن النور بأيمانهم.

والثالث: أن (بأيمانهم) هي التي بين أيديهم، يعني: وبين أيمانهم، وغاير بين الباء و(بين) لتنوع

اللفظ؛ يعني كأنه قال: يسعىٰ نورهم بين أيديهم وأيمانهم. يعني نورهم يكون بين أيديهم وعلىٰ جهة اليمين منهم أيضًا إكرامًا لجهة اليمين التي جعل الله جل وعلا الكتاب مأخوذًا بها.

قال: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ البشرىٰ من البشارة، وأصل البشارة هي الخبر الذي تتأثر منه البشرة، سواء أكان خبر خيرٍ أم كان خبر شر، فالخبر الذي تتأثر منه البشرة تغيرًا إما بسرور وإما بضده؛ هٰذا يقال له: بشارة، وهٰذا في أصل اللغة، وقد جاء هٰذا وهٰذا في القرآن؛ كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان] وهٰذا فيما يؤذي، وتبشير الجنات فيما يسر كثير، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف:٩٦] أيضًا مما يسر، وقد غلب في الاستعمال أن البشارة والتبشير يكونان فيما يسر ويظهر أثر السرور علىٰ البشرة.

وقوله هنا: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ هنا البشرىٰ بأن لهم ذلك اليوم جنات، وأنه يلقىٰ عليهم هٰذا ويظهر أثره في جميع أجزاء بشرتهم، وهٰذا فيه سرور النفس وسرور أجزاء البدن أيضًا بذلك.

قال: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ الجنات كما هو معروف جمع جنة، والجنة في أصل كلام العرب هي البستان الذي كثف شجره فأخفىٰ من فيه، يعني أخفىٰ الداخل فيه، وهٰذا مأخوذ من أصل الاشتقاق في أن مادة (جنَّ) كما هو معلوم مبنية علىٰ الخفاء والاستتار؛ للجنين والجنون والمِجَنّ وأشباه ذلك.

وأهل العلم في نظرهم إلىٰ معنىٰ الاستتار في الجنة علىٰ وجهين؛ منهم من يقول: إنها مستترة عن الأنظار في الدنيا، ومنهم من يقول: إن معنىٰ الاستتار فيها لأجل أن أحدًا من أهل الجنة لا يطّلع علىٰ نعيم الآخر، فكلٌّ في جنة مستقلة، ولذلك جُمعت مع أن جنة عدن واحدة، لكنها جُمعت وجعلت متعددة لأن لكل واحد منهم جنة، والجميع في جنة واحدة.

قال: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الخلود هنا هو خلود أبدي؛ لأن الخلود في اللغة هو طول المُكث أبديًّا، وقد يكون طول المكث طويلًا جدًّا أو مؤبدًا، وقد يكون طويلًا بحسبه، لهٰذا كانت العرب تسمي خالدًا تفاؤلًا بطول العمر وطول المكث في الدنيا.

والخلود جعل في القرآن تارةً مميزًا بـ(أبدًا) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧]، وتارة غير مميز، وهٰذا وهٰذا يُحمَل بعضه علىٰ بعض؛ لأن الخلود في الجنة مؤبد؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذا ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هٰذا الْمَوْتُ. وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ. فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ

تَعْرِفُونَ هٰذا ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هٰذا الْمَوْتُ. وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ».

أما النار فجاء الخلود فيها بالقرآن بدون التأبيد، إلا في موضع أو موضعين، وهٰذا في حق العصاة، وهٰذا مما حمله السلف علىٰ أن أهل التوحيد وأهل الإيمان قد يخلدون في النار إذا قضىٰ الله جل وعلا أن يكونوا من أهل النار لكبائرهم ولتطهيرهم ولكنهم لا يؤبدون فيها، ولهٰذا جاء في مثل أكل الربا وقاتل النفس الخلود بدون تأبيد، وجاء في حق الكفار التأبيد مع الخلود، وهٰذا الاختلاف في طبقات النار، فالخلود متنوع، وطول المكس متنوع، والبحث في هل قوله في أهل النار: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ هل هو أبدية بالنسبة إلىٰ الزمان أم أبدية بالنسبة إلىٰ بقاء النار ؟ قولان معروفان عند أهل العلم.

قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ (ذلك) عبارة عن ثلاث كلمات: ذا، واللام، والكاف، وذا: اسم إشارة، واللام للبعد، والكاف للخطاب، وقد يأتي في الكلام: (ذاك) بدون اللام، قال ابن مالك في الألفية:

....وَلَدَىٰ الْبُعْدِ انْطِقَا
بِالْكَافِ حَرْفًا دُونَ لام أَوْ مَعَهْ .....

وإذا كان كذلك فالبُعد هنا المقصود به من جهة المعنىٰ والبلاغة أنه بعد في المكانة والمنزلة في أعلىٰ مقامات الحفاوة والاهتمام، ليس البعد زمانًا، ولكن هو بعد وارتفاع قدر ومنزلة، وهٰذا كما في نظائره كقوله: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾[البقرة]، مع أن الكتاب هو الذي بين أيدينا، فلم يقل: هٰذا الكتاب لا ريب فيه هدىٰ للمتقين. فأشار إليه إشارة بعد، والإشارة بالبعد ليس مقتضاها البعد الحسي، ولكن بُعْد المنزلة وارتفاع المقام حقيقة.

وكلمة (هو) هنا في ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ ضمير عمادٍ أو فصل، لا محل له من الإعراب، و(الفوز) بعدها خبر لاسم الإشارة (ذلك)، وليس لـ(هو)؛ لأن (هو) ضمير لا محل له من الإعراب يسميه أهل البصرة ضمير فصل، ويسميه أهل الكوفة ضمير عماد، وهٰذا الضمير يفصل ما بين المبتدأ والخبر أو الاسم والخبر إذا كانا معرفتين لكي لا يشتبه الخبر بالوصف أو بالنعت، ولفوائد أخرىٰ أو أحوال أخرىٰ في النحو معروفة، لكن ما فائدته من جهة المعنىٰ ومن جهة البلاغة ؟

ضمير الفصل له عدة فوائد ننتفع منها في التفسير؛ من فوائده أنه فصلٌ للتأكيد، فمن أنواع المؤكدات

مجيء ضمير الفصل، والفائدة الثانية للتمييز ما بين الخبر والنعت، والتمييز هٰذا يفيد في أن النعت كما هو معلوم تابع والخبر غير تابع، وهٰذا يفيد في بيان المعنىٰ والإعراب في مثل هٰذا الموضع.

وقوله: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ نعت لـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾.

و(العظيم) في القرآن جاء علىٰ جهتين:

الأول: عظم الذات.

والثاني: عظم الصفات.

والذوات تتنوع، فيكون عظم كل ذاتٍ بحسبها، والصفات أيضًا تتنوع، فيكون عظم كل صفة وموصوف بتلك الصفة بحسبه، مثلًا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة] فهٰذا عظم صفات بحسبه، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل] وصف الله جل وعلا عرشها بالعظم ووصف عرشه أيضًا جل جلاله الذي في السماء بأنه عظيم، هٰذا عظم ذات وصفات بحسبه، يعني بحسب من أضيف إليه.

قال جل وعلا بعدها: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ المراد بالمنافقين والمنافقات هنا هم أهل النفاق في الاعتقاد، أما أهل النفاق العملي فإنهم يدخلون في اسم الإسلام الذي دلت عليه الآية قبلها، ويدخلون في الموازنة أو في العقوبة أو في عفو الله جل وعلا عنهم بحسب ما عندهم من الحسنات وعظم خصال النفاق التي اكتسبوها.

فقوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ المراد بهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، يقولون للذين آمنوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ وانظروا هنا بمعنىٰ الانتظار، فقوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ يعني انتظرونا.

وكلمة (انظروا) جاءت في القرآن:

- بمعنىٰ النظر الذي هو الاعتبار والتأمل والتدبر.
- وبمعنىٰ النظر الذي هو الرؤية.
- وبمعنىٰ النظر الذي هو الانتظار.

والفرق بينها من جهة الاستعمال باختلاف ما تعدىٰ به، فإذا تعدىٰ النظر بـ(إلىٰ) فإنه يكون بمعنىٰ الرؤية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة] ناظرة إلىٰ ربها يعني رائية وجه ربها الكريم، ومن فسرها بمنتظرة نِعمَ ربها من السلف فهٰذا غلط في التفسير، وإن كان من بعض أقوال التابعين، فجعل ﴿إِلَىٰ

﴿رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣﴾ يعني ناظرة نِعم ربها، وهو مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ، فتكون (إلىٰ) مفرد الآلاء وهي النعم، وهٰذا خلاف تفسير النبي عليه الصلاة والسلام وتفاسير الصحابة بأجمع، وكذلك تفاسير جمهور التابعين.

المقصود أن قوله هنا: ﴿انظُرُونَا﴾ تعدىٰ الفعل (نظر) بنفسه، فيكون بمعنىٰ الانتظار.

﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ (نقتبس) يعني نأخذ قبسًا، وهو البصيص من النور، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ يأتي تكملة تفسير هٰذه ألاية إن شاء الله تعالىٰ.

[أسئلة]

سؤال: ... ؟

الجواب: يكون بدلًا في مواضع، لكن في مثل هٰذا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢﴾ يصير مبتدأ وخبرًا، لكن هٰذا صحيح في بعض المواضع يكون المعرفة بعد اسم الإشارة بدلًا أو عطف بيان ممكن؛ لكن في غير هٰذا السياق، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢﴾ مبتدأ وخبر، ويتضح لك الفرق بينهما لو قلت مثلًا: هٰذا الرجل القاضي، أو هٰذا الإمام، فيشتبه هل تمت الجملة أو لا؛ لكن إذا أتيت بضمير الفصل ذهب الاشتباه، فتقول: هٰذا هو الإمام، هٰذا الرجل هو القاضي، هنا الرجل عطف بيان أو بدل، لٰكِن القاضي خبر.

***

الدرس السادس

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلَّوَيْهِ الْقَطَّانُ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيسَىٰ الْعَطَّارُ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ بِشْرٍ أَبُو حُذَيْفَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَدْعُو النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِهِمْ سِتْرًا مِنْهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَأَمَّا عِنْدَ الصِّرَاطِ فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي كُلَّ مُؤْمِنٍ نُورًا، وَكُلَّ مُنَافِقٍ نُورًا، فَإِذَا اسْتَوَوْا عَلَىٰ الصِّرَاطِ سَلَبَ اللهُ نُورَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التَّحْرِيم: ٨]. فَلَا يَذْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ أَحَدٌ أَحَدًا» وَقَوْلُهُ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ قَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: هُوَ حَائِطٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ النَّارِ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الْأَعْرَاف: ٤٦]. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، رَحِمَهُ اللهُ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أَيِ: الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ أَيِ: النَّارُ. قَالَهُ قتادة، وابن زيد، وغيرهما.

قال ابن جَرِيرٍ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ السُّورَ سورُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عِنْدَ وَادِي جَهَنَّمَ. ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْبَرْقِيِّ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَطِيَّةَ بْنِ قَيْسٍ، عن أبي العوام- مُؤَذِّنِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ- قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: إِنَّ السُّورَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ هُوَ السُّورُ الشَّرْقِيُّ بَاطِنُهُ الْمَسْجِدُ وَمَا يَلِيهِ، وَظَاهِرُهُ وَادِي جَهَنَّمَ.

ثُمَّ رُوِيَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَعْبِ الْأَحْبَارِ، وَعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، نَحْوُ ذَلِكَ. وَهٰذا مَحْمُولٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهٰذا تَقْرِيبَ الْمَعْنَىٰ وَمِثَالًا لِذَلِكَ، لَا أَنَّ هٰذا هُوَ الَّذِي أُرِيدَ مِنَ الْقُرْآنِ هٰذا الْجِدَارُ الْمُعَيَّنُ وَنَفْسُ الْمَسْجِدِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنَ الْوَادِي الْمَعْرُوفِ بِوَادِي جهنم؛ فإن الجنة في السَّمٰوات فِي أَعْلَىٰ عِلِّيِّينَ، وَالنَّارَ فِي الدَّرَكَاتِ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. وَقَوْلُ كَعْبِ الْأَحْبَارِ: إِنَّ الْبَابَ الْمَذْكُورَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ بَابُ الرَّحْمَةِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ، فَهٰذا مِنْ إِسْرَائِيلِيَّاتِهِ وتُرّهاته. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِذَلِكَ: سورٌ يُضْرَب يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَحْجِزَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِذَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ دَخَلُوهُ مِنْ بَابِهِ، فَإِذَا اسْتَكْمَلُوا دُخولهم أُغْلِقَ الْبَابُ وَبَقِيَ الْمُنَافِقُونَ مِنْ وَرَائِهِ فِي الْحَيْرَةِ وَالظُّلْمَةِ وَالْعَذَابِ، كَمَا كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا فِي كُفْرٍ وَجَهْلٍ وَشَكٍّ وَحَيْرَةٍ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أَيْ: يُنَادِي الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ: أَمَا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، نَشْهَدُ مَعَكُمُ الْجُمُعَاتِ، وَنُصَلِّي مَعَكُمُ الْجَمَاعَاتِ، وَنَقِفُ مَعَكُمْ بِعَرَفَاتٍ،

وَنَحْضُرُ مَعَكُمُ الْغَزَوَاتِ، وَنُؤَدِّي مَعَكُمْ سَائِرَ الْوَاجِبَاتِ؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أَيْ: فَأَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُنَافِقِينَ قَائِلِينَ: بَلَىٰ، قَدْ كُنْتُمْ مَعَنَا، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَيْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاللَّذَّاتِ وَالْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أَيْ: أَخَّرْتُمُ التَّوْبَةَ مِنْ وَقْتٍ إِلَىٰ وَقْتٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بِالْحَقِّ وَأَهْلِهِ ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أَيْ: بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أَيْ: قُلْتُمْ: سَيُغْفَرُ لَنَا. وَقِيلَ: غَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مَا زِلْتُمْ فِي هٰذَا حَتَّىٰ جَاءَ الْمَوْتُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ أَيِ: الشَّيْطَانُ.

قَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا عَلَىٰ خَدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللهِ مَا زَالُوا عَلَيْهَا حَتَّىٰ قَذَفَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ.

وَمَعْنَىٰ هٰذَا الْكَلَامِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُنَافِقِينَ: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مَعَنَا أَيْ بِأَبْدَانٍ لَا نِيَّةَ لَهَا وَلَا قُلُوبَ مَعَهَا، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تُراؤون النَّاسَ وَلَا تَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا.

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ الْمُنَافِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْيَاءً يُنَاكِحُونَهُمْ وَيَغْشَونَهُمْ وَيُعَاشِرُونَهُمْ، وَكَانُوا مَعَهُمْ أَمْوَاتًا، وَيُعْطَوْنَ النُّورَ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُطْفَأُ النُّورُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِذَا بَلَغُوا السُّورَ، ويُماز بَيْنَهُمْ حِينَئِذٍ.

وَهٰذَا الْقَوْلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يُنَافِي قَوْلَهُمُ الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْهُمْ، حَيْثُ يَقُولُ -وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ-: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[المدثر]، فَهٰذَا إِنَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ التَّقْرِيعِ لَهُمْ وَالتَّوْبِيخِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾[المدثر]، كما قال تعالىٰ هاهنا: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أَيْ: لَوْ جَاءَ أَحَدُكُمُ الْيَوْمَ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلِهِ مَعَهُ لِيَفْتَدِيَ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ، مَا قُبِلَ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أَيْ: هِيَ مَصِيرُكُمْ وَإِلَيْهَا مُنْقَلَبُكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أَيْ: هِيَ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَارْتِيَابِكُمْ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، واغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، إنك أنت الغفور الودود.

أما بعد؛ يقول جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ

﴿بَابٌ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾، قوله جل جلاله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ هٰذا إخبار من الحق جل وعلا عن أمر يكون يوم القيامة بالأرض المبدلة التي هي غير الأرض؛ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[إبراهيم:٤٨]، يوم يؤتىٰ بجهنم لها سبعون ألف زمام، يجرها الملائكة، ويُنصَب الصراط علىٰ متن جهنم، فيتميز الناس، وتوضع الظلمة دون الجسر، فهٰذا خبرٌ ليس عن أرضنا هٰذه ولا عما فيها، ولهٰذا ما ذُكر من التفاسير في أن المراد سور بيت المقدس وما وراءه من الوادي المعروف الذي يمر ببيت المقدس المسمىٰ اليوم ومن قديم بوادي جهنم، هٰذا ليس له علاقة بما ذكره الله جل وعلا هنا؛ لأن الكلام عن الأرض المبدلة، ولا يبقىٰ الوصف ولا الأسماء، أيضًا هم سموه وادي جهنم لأجل ما روي في ذلك من إسرائيليات، ومن جرّاء ذلك كان أهل تلك المدينة في القديم يهابون أن يمضوا إلىٰ آخر ذلك الوادي المسمىٰ بوادي جهنم؛ لأنهم يظنون أن آخره يفيض إلىٰ جهنم، وهٰذا من الجهالات ومن أثر الإسرائيليات السيئة في الناس.

والذي ينبغي دائمًا أن يُجعل التفسير في عمومه بما دلّت عليه الآية، وتُفهم الآيات علىٰ ما يقتضي معناها من نصوص الكتاب والسُّنة، وأما كلام السّلف فيما يخالف الأدلّة أو ما يكون متأثرًا بأخبار بني إسرائيل إذا كان في أمور الغيب كأمثال هٰذا أو تُحيله العقول فإنه لا ينبغي قبوله؛ لهٰذا قوله جل جلاله هنا: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ يعني بين المؤمنين والمنافقين، وهٰذا السُّور يكون يوم القيامة، وهو سور حقيقي، له بابٌ حقيقي؛ كما وصف الله جل وعلا .

قال: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ ما هو الباطن وما هو الظاهر في ذلك الحال؟

اختلف أهل العلم والتفسير في معنىٰ هٰذا، والأقرب فيه أن يكون الباطن كما ذكر ابن كثير هنا هو ما وراءه من الجنة والنعيم، وإن لم يكن السور هٰذا محيطًا بالجنة، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ يعني أن من لم يكن في داخل هٰذا السور كان من أهل العذاب؛ لأنه سيهوي في جهنم والعياذ بالله.

فالباطن: الجنة، والظاهر: النار؛ ولكن هٰذا من جهة أن المراد بالباطن أن من كان في باطن هٰذا السور ودخل وكان مع المؤمنين فإن مآله إلىٰ الجنة، لا أن هٰذا السور محيط بالجنة، وإنما هو سور يضعه الله جل وعلا ليميز المؤمن من المنافق؛ لتكون الفتنة الكبرىٰ والخدعة الكبرىٰ لأهل النفاق.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ فصل الله جل وعلا بينهم وبين المؤمنين بهٰذا السور، وحلت الظلمة ولم يروا

طريقهم، وعلموا أنهم ليسوا مع المؤمنين وأن المؤمنين مُيّزوا عنهم، فهٰذا دليل علىٰ أنهم سيحيق بهم أمر الله جل جلاله، فنادوا المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يعني ألم نكن مصاحبين لكم في أموركم، معكم في المساجد، معكم في الغزوات، معكم في أُمورنا التي كنا نشترك فيها! فيجيبهم أهل الإيمان: بلىٰ. وقوله هنا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ المقصود معيّة المقارنة والصحبة التي هي في نحو قوله جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة]، يعني كنا معكم في الصفات، كنا معكم في الإيمان، كنا معكم في الصلاة، كنا معكم في أعمال البر، فباعتبار الظاهر كان الجميع واحدًا، لكن باعتبار الباطن واعتبار القلوب هم مختلفون اختلافًا شديدا، فأهل النفاق كفرة، وأهل الإيمان بررة، وهؤلاء لا يكونون مع هؤلاء في الحقيقة.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ يعني كنتم مقارنين لنا ومصاحبين ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فتنتم أنفسكم بعدم الإيمان، وفتنتم أنفسكم بأن أضمرتم النفاق، أنتم الذين عرّضتم أنفسكم لهٰذه الفتنة العظيمة إذ لم تؤمنوا حق الإيمان، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ والتربص هنا اختلف فيه المفسرون علىٰ عدة أقوال:

منها أن يكون التربص باعتبار ظاهر الكلام، يعني تربصتم بالمؤمنين، تربصتم بالحق وأهله وكنتم مع أهل الكفر تريدون غلبته.

وهٰذا التفسير جاء في عدد من الآيات أن أهل النفاق مع أهل الكفر في المودة وفي النصرة، وهم يتربصون بالمؤمنين ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾[النساء: ١٤١]، فهٰذا نوع من التربص، والتربص في أصل معناه هو ابتغاء الزمن الذي يحقق فيه المرء مراده، يعني ينتظر الشيء الذي يحقق فيه مراده الذي يخفيه أو الذي في نفسه، وليس هٰذا الشيء دائمًا مذمومًا، فالمرء يتربص فيما هو مذموم وفيما هو غير مذموم، يعني في اللغة.

ومن أهل العلم من قال: التربص هنا هو ابتغاء الزمن الذي تكون فيه التوبة، ويكون فيه نهاية الأمر في الصراع ما بين أهل الإيمان وأهل النفاق، فهم يؤجلون التوبة من زمن إلىٰ زمن، ولا يزال في قلوبهم زيغ ومرض وريب، فلا ينصرون أهل الإيمان، وإنما هم معهم ظاهرًا، ومع الكفار باطنًا، فيكون معنىٰ التربص هنا تأخير التوبة وابتغاء وقت مؤجل للتوبة والإيمان، لا لعزمهم علىٰ التوبة، ولكن لينظروا إلىٰ

عاقبة الأمر؛ هل عاقبة الأمر ستكون للمؤمنين، أو عاقبة الأمر تكون للكافرين، فهم يطلبون وقتًا حتىٰ ينظر في الأمر؛ إن غلب أهل الإيمان ادعوا أنهم معهم، وإن غلب أهل الكفر قالوا: إنا معكم ومنعناكم من المؤمنين.

وثَم أقوال أخرىٰ؛ لكنها تدور حول معنىٰ تأخير شيء وإبطانه، ويمكن فهمها في الآيات التي وردت في معناها.

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وريب المنافقين متعدد، وابن كثير فيما سمعت فسَّر الريب بالريب بالبعث بعد الموت، وهٰذه صورة مناسبة للمقام الذي فيه ذكر الريب هنا، ولكن حقيقةً هم مرتابون في الله جل وعلا، ومرتابون في النبي ﷺ، وهم في ريب من القرآن، وهم في ريب من انتصار أهل الإيمان، وهم في ريب في كل أمورهم، لهٰذا ذكر ريب المنافقين في عددٍ من الآيات متعلقًا بعدد من الصور، ليس فقط ريبًا بالبعث، فهم مرتابون في كل أمورهم، فلا يخص البعث بعد الموت فقط، ولكن البعث بعد الموت مما ارتابوا فيه؛ لأنه لو آمن المنافق حقًّا بأنه سيكون بعث بعد الموت لصدق ولوحد ولجاهد بالحق.

قال جل وعلا: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ الأماني هي جمع أُمْنِيَة، ويقال أيضا: أُمْنِيَّة، وهي ما يتمناه الإنسان، وفرق ما بين الأماني وما بين الرجاء، فالأمنية في الغالب لا يكون معها سبب يعمله الإنسان، بخلاف الرجاء المحمود فإنه يرجو ويبذل الأسباب فيه، فهٰذا من الفروق ما بين الأمنية وما بين الرَّجاء، وتطلق الأمنيّة بالتشديد علىٰ ما يتمناه المرء وتطلق الأمنيَّة أيضًا علىٰ التلاوة؛ كما في قوله: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢] يعني في تلاوته.

ومعنىٰ ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾: ما تتمنون من أن تكون العاقبة لكم أو أنكم ستظفرون أو أنكم ستتوبون إذا تبين الأمر، لكن في الحقيقة هٰذه الأماني إنما هي غرور، وحقيقة الغرور هو ما يغتر به الإنسان مما يظهر له فيه شيء وفي الحقيقة هو ليس كذلك.

قال بعدها جل وعلا: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني بالموت، ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ والغرور هنا هو الشيطان؛ لأنه هو مصدر الغرور، وهو الذي يغر الإنسان فيما يأتيه وفيما يذره من أعمال، أعاذنا الله من ذلك.

وهٰذه الآية كلها قبل دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أما إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ فثم آيات أخرىٰ تبين كلام أهل الإيمان مع أهل النفاق، وما يكون من الحوار بينهم، أو من

ترادد بين أهل الكفر وأهل الإيمان، أو أهل النار وأهل الجنة، مثلما ساق ابن كثير في قول الله جل وعلا في سورة المدثر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[المدثر] هٰذا بعد أن يدخلوا الجنة، وهٰذا حوار آخر وحديث آخر ليس هو كالذي في هٰذه السورة، فما في هٰذه السورة قبلُ، إذا وضعت الظلمة وجاء السور وظهر فضل أهل الإيمان وخسارة أهل النفاق.

قال جل وعلا في آخر الآية: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ والمأوىٰ في حقيقته هو مكان يُئوىٰ إليه، فيأوي إليه الإنسان أو المخلوق، فمأوىٰ الحيوان مثلًا هو بيته، ومأوىٰ الإنسان هو مسكنه، وقيل: الجنة مأوىٰ والنار مأوىٰ باعتبار الحياة، وأن الحياة هي دار الانتقال ودار الحركة، فيأوي إلىٰ الجنة، أما من دخل الجنة فإنه لا يخرج منها، فلا يخرج ثم يعود ليأوي إليها، كذلك من دخل النار من الكفار فإنه لا يخرج منها، فهي تكون مأوىٰ له بعد انتقاله؛ لكن المقصود هي مأوىٰ بعد النقلة التي كانت في الدنيا وما صار من الحركة والنشاط والانتقال والحياة، ثم يأوي إلىٰ الجنة أهل الإيمان، ويأوي إلىٰ النار أهل الكفر؛ لهٰذا قال جل وعلا هنا: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾، والمولىٰ هو المُحب والنصير والموالي، الولاء لكم، يعني إذا أردتم من يحبكم وإذا أردتم من ينصركم فهي النار، هي دار الهوان، وهي مولاكم بكل معاني المحبة والنصرة؛ لأن النار مطيعة لله جل وعلا، وهي دار العذاب والهوان التي أعدها الله جل وعلا لأعدائه، لهٰذا هي تتغيظ، ولذلك فلجهنم شعور ولها إحساس مُحبة لربها جل وعلا، فهي مطيعة لأمره، خلقها الله جل وعلا علىٰ هٰذا النحو ليعذب بها أعداءه، ويعذب بها أهل الكفر والنفاق، وليطهر بها أهل الإيمان، فهي من جملة مخلوقات الله المسبّحة المطيعة، لهٰذا تتغيظ علىٰ الكفر وتتغيظ علىٰ الكافرين؛ وفي ذلك عدد من الآيات؛ كقوله جل وعلا: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾[الملك]، فقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾، (تميز) يعني: تفرق ويظهر انصداع النار وتشعبها من الغيظ الذي فيها علىٰ أهل الكفر وعبادة غير الله جل وعلا.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ يعني بئس المكان الذي يصار إليه وهو النار، يعني: بئس المصير هي، أعاذنا الله وإياكم من عذاب النار.

***

الدرس السابع

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَمَا آنَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ، أَيْ: تَلِينَ عِنْدَ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَتَفْهَمَهُ وتنقادُ لَهُ وَتَسْمَعَ لَهُ وَتُطِيعَهُ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: حَدَّثَنَا صَالِحٍ الْمُرِّي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللهَ اسْتَبْطَأَ قُلُوبَ الْمُهَاجِرِينَ فَعَاتَبَهُمْ عَلَىٰ رَأْسِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الْآيَةَ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّبَّاحِ، عَنْ حُسَيْنٍ الْمَرْوَزِيِّ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، بِهِ.

ثُمَّ قَالَ هُوَ وَمُسْلِمٌ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ-يَعْنِي اللَّيْثَ-عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهٰذِهِ الْآيَةِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الْآيَةَ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ

كَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي آخِرِ الْكِتَابِ. وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هٰذِهِ الْآيَةِ، عَنْ هَارُونَ بْنِ سَعِيدٍ الْأَيْلِيِّ، عَنِ ابْنِ وَهْبٍ، بِهِ وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ مُوسَىٰ بْنِ يَعْقُوبَ الزَّمْعِيِّ عَنْ أَبِي حَزْمٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، مِثْلَهُ فَجَعَلَهُ مِنْ مُسْنَدِ بْنِ الزُّبَيْرِ. لَكِنْ رَوَاهُ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ طَرِيقِ مُوسَىٰ بْنِ يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ عامر، عن بن الزبير، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَذَكَرَهُ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنِ الْمَسْعُودِيِّ، عَنِ الْقَاسِمِ قَالَ: مَلَّ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَلَّةً، فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله تَعَالَىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يُوسُفَ:٣] قَالَ: ثُمَّ مَلُّوا مَلَّةً فَقَالُوا: حَدِّثْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزُّمَرِ:٢٣]. ثُمَّ مَلُّوا مَلَّةً فَقَالُوا: حَدِّثْنَا يَا رَسُولَ اللهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ كَانَ يَرْوِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ»

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ﴾ نَهَىٰ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالَّذِينَ حَمَلُوا الْكِتَابَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، لَمَّا تَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ

وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَأَقْبَلُوا عَلَىٰ الْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَقْوَالِ الْمُؤْتَفِكَةِ، وَقَلَّدُوا الرِّجَالَ فِي دِينِ اللهِ، وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، فَلَا يَقْبَلُونَ مَوْعِظَةً، وَلَا تَلِينُ قُلُوبُهُمْ بِوَعْدٍ وَلَا وَعِيدٍ.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أَيْ: فِي الْأَعْمَالِ، فَقُلُوبُهُمْ فَاسِدَةٌ، وَأَعْمَالُهُمْ بَاطِلَةٌ. كَمَا قَالَ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المَائِدَة:١٣]، أَيْ: فَسَدَتْ قُلُوبُهُمْ فَقَسَتْ وَصَارَ مِنْ سَجِيَّتِهِمْ تَحْرِيفُ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَرَكُوا الْأَعْمَالَ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا، وَارْتَكَبُوا مَا نهو عَنْهُ؛ وَلِهٰذا نَهَىٰ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْفَرْعِيَّةِ.

قال جل وعلا: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ هاتان الآيتان من الآيات العظيمة في معاتبة أهل الإيمان علىٰ قسوة قلوبهم وعدم لينها، وقد نزل عليها ما يُلين الجبال الصم، وما يُلين الحديد، وهو القرآن العظيم، وهو الذِّكر الذي من أقبل عليه فإنه أعظم سبب لعدم قسوة القلب وللينه، ولتذكر حق الله جل وعلا، وتذكر الآخرة، فالذكر هنا هو القرآن، وقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ يعني ألم يحن، ألم يأت وقت خشوع قلوب الذين آمنوا لذكر الله، ألم يأت أوان الخشوع بعد أن نزل القرآن.

وهٰذا فيه حث وفيه مخاطبة لهم مخاطبة شديدة؛ لأنهم لا تخشع قلوبهم لذكر الله، مع أن القرآن بين أيديهم، وقد أُنزل عليهم.

وقوله جل وعلا: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ الخشوع هنا جعله خشوع القلب؛ لأن خشوع القلب هو الأساس في كل أنواع الخشوع، وأصل الخشوع هو التطامن والذل وعدم الحركة، كما قال جل وعلا في سورة فُصلت: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يعني لا حركة فيها ذليلة خاضعة مستكينة لا تتحرك ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ بشق الماء لها وكذلك شق النبات ﴿وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت].

والخشوع المذكور في هٰذه الآية هو خشوع القلب، ويكون بسكينته وخضوعه وعدم التفاته عن ربه جل وعلا، وكذلك خشوع الجوارح في وقت العبادة، يعني في الصلاة ونحوها، ويكون بتطامن الجوارح

وعدم حركتها.

قال جل وعلا بعدها: ﴿ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ واللام هنا يمكن أن تكون للتعليل، يعني أن تخشع قلوبهم لأجل نزول الذكر ومخاطبة القلوب بذكر الله جل وعلا الذي هو القرآن، أو لعموم ذكر الله جل وعلا الذي يذكر به المرء ربه.

أو تكون اللام بمعنىٰ (إلىٰ) علىٰ طريقة البصريين، يعني تخشع القلوب إلىٰ الذكر فتُقبل علىٰ الذكر وتستعمل الذكر.

والوجه الأول أولىٰ لأنه هو معنىٰ الآية، يعني ظاهر الآية، يعني: ألم يأن للذين آمنوا أن تكون قلوبهم خاشعة ذليلة مستكينة لا تلتفت عن الله جل وعلا من أجل ذكره ﷻ الذي عُلموه من القرآن وأنواع الذكر وما نزل من الله جل وعلا من الحق الذي يشمل كل أنواع العقائد والشريعة والأحكام، وهٰذا هو الواجب، والحقيقة أن إيمان المؤمن بما نزل عليه من القرآن وما أمر به من لهج لسانه بذكر الله؛ الذكر الواجب في الصلاة ونحوها، أو الذكر المستحب؛ هٰذا أعظم أسباب خشوع القلوب وعدم قسوتها، فإذا كان بين أيدينا الذكر وهو متاح، وبين أيدينا ذكر الله جل وعلا الواجب، والقرآن بين أيدينا وما نزل من الحق، ومع ذلك القلوب لا تخشع، فهٰذا دليل بوار ودليل خسران، لهٰذا صار استبطاء الله جل وعلا عباده أنهم لم تلن قلوبهم ولم تخشع لذكر الله وما نزل من الحق.

وقوله هنا: ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ هٰذا عطف علىٰ الذِّكر، وعطفه علىٰ الذكر له عدة توجيهات:

الأول: أن يكون من باب عطف الخاص علىٰ العام، فذكر الله يشمل القرآن؛ لأن القرآن ذكر ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ [الحجر]، وكل ما يذكر بالله جل وعلا فهو ذكرٌ له سبحانه من أنواع الأعمال القولية والعملية والاعتقادات القلبية، فيكون ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ يعني من كتاب الله جل وعلا، وهٰذا من باب التنصيص علىٰ خُصوص القرآن.

الثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ التشريعات والعقائد التفصيلية، وأن يكون قوله: ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ يعني القرآن، وما نزل من الحق يعني الحق في أمور الغيب، والحق في العقيدة، والحق في التشريع، والحق في الأحكام، هٰذه كلها من تأملها حقيقة فإنها مدعاةٌ وسببٌ ووسيلة عظيمة من وسائل خشوع القلب وعدم قسوته.

ولا شك أن نزول الذكر والتشريعات والأحكام والعقائد التي بين أيدينا من تأملها متخلصًا من هواه موقنًا بلقاء ربه فإنها ستحدث لقلبه خشوعًا وستطرد قسوة القلوب التي إذا قست فهي أشد ما تكون في الغلظة والجفاء والبعد عن اللين والإقبال علىٰ الخير.

ويتكلم أهل السلوك كثيرًا في معنىٰ خشوع القلب، وهٰذا له تفصيلات كثيرة ذكرها أهل السلوك، سواء من المتابعين لطريقة السلف أم من غيرهم، ويمكن أن تطلب تفاصيله في مثل كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم؛ لأن من المدارج ومن صفات أهل الإيمان الخاصة الخشوع، وأعظم الخشوع خشوع القلب، وهو عدم اضطرابه وحركته والتفاته عن ربه جل وعلا إلىٰ ما سواه، قد يلتفت الإنسان عن الله جل جلاله إلىٰ ما سواه من الدنيا بأنواعها، فإذا التفت فإنه سيضطرب، وإذا اضطرب فإنه لن يخشع وستأتيه قسوة القلوب من أوسع الأبواب.

وعدم الالتفات عن الله جل وعلا كتعبير للسلف فيه استعمال، وللخلف وأهل البدع لهم فيه استعمال، وأما الاستعمال الصحيح المحمود له ألا يلتفت عن الله جل وعلا في الإخلاص والتوجه له، وألا يلتفت عن الله جل وعلا في متابعة أمره واجتناب نهيه، وألا يلتفت عن الله جل وعلا في الرغب والتوجه والرجاء والأمل والتوكل وأعمال القلوب، وأعمال القلوب هي التي يكون فيها عدم الالتفات، وهي متنوعة؛ المحبة، الرجاء، التوكل، الإنابة، الرغب، الرهب... وأشباه ذلك، فإذا حصل للقلب عدم التفات عن الله جل وعلا بأعمال القلوب فإنه يعظم خشوعه وتعظم طمأنينته، وإذا حصل التفات فإنه يضطرب بقدر ما حصل من الالتفات.

أما تفسير أهل السلوك الذين سلكوا مصطلحات ومحدثات في الأقوال والأعمال والأحوال فإنهم يفسرون التفات القلب بترك الخلوة، وتخليص القلب من الشوائب وتفتيش القلب والجمعية -كما يقولون بالله جل وعلا-، وهٰذه عندهم تكون بالتدريب والرياضة حتىٰ يكون القلب متصلًا بالله جل وعلا، ثم يؤول الأمر أن يفاض عليه إما بالإلهام أو بالوحي أو بأنواع من ذلك علىٰ حسب بعد المفسر لها وقربه من الحق.

قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ هٰذه الجملة من هٰذه الآية العظيمة نصٌّ في تحريم التشبه بأهل الكفر وبأهل الكتاب، وذكر الله جل وعلا هنا أن أهل الكتاب نزل عليهم الحق وجاءهم الذكر لكن تركوه، قال جل وعلا: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن

قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، ﴿ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني أعطوه فيه البينات والهدىٰ، فيه النور، فيه الهداية، فيه أسباب خشوع القلب، فيه أسباب الإقبال علىٰ الله جل وعلا، لكنهم ملوه وتركوه ولم يجعلوه كافيًا في تحصيل العلوم وتحقيق الآمال، قال: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾ يعني مرت عليهم السنون ومئات السنين فتركوا كتابهم وتركوا ما أنزل الله جل وعلا إلىٰ ما استحدثوه من أنواع المحدثات القولية والعملية والاعتقادية، قال: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾ والنتيجة: ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فجعل قسوة القلوب نتيجة لترك الكتاب، طال عليهم الأمد فتركوا الكتاب؛ حرفوه وبدلوه وأحدثوا؛ كما قال جل وعلا في آية سورة المائدة: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ (فبما نقضهم) يعني: فبنقضهم ميثاقهم، (ما) هنا صلة للتأكيد، لماذا؟ ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣]، (نسوا) هنا بمعنىٰ تركوا، يعني تركوا حظًّا مما ذكروا به في أمر العقيدة والتوحيد، ونبوة موسىٰ عليه السلام، ونبوة الأنبياء، ونسوا حظًّا أي تركوا نصيبًا مما ذكروا به في كتابهم في الأعمال، وكانت النتيجة قسوة القلوب.

وهٰذا من أعظم ما يبتلي الله جل وعلا به العبد، وهٰذا من آثار الذنوب ومن آثار المعاصي ومن آثار الإعراض عن ذكر الله جل وعلا، وأعظم ما يعاقب الله جل وعلا به العبد بذنبه ومعصيته أن يعاقبه بعقوبات قدرية قلبية، يعني أن يقسو قلبه، ثم بعد القسوة ربما لا يرىٰ الحق حقًّا ولا يرىٰ الباطل باطلًا، وقد يزداد بعد ذلك ويزيد الله في عقوبته، أو يزيد أثر المعصية علىٰ القلب بأنه يرىٰ الحق باطلًا ويرىٰ الباطل حقًّا، هٰذا أعظم الانتكاس وأعظم آثار الذنوب علىٰ القلوب.

وهٰذا هو الواقع في الحقيقة؛ أن الذي يأنس للمعصية ويأنس للذنب وعدم تحقيق العبادة وتحقيق التوحيد وعدم اتباع السنة ويأنس للتساهل في ذلك والمخالفة ولا يهتم فإنه ولا بد أن يقع لهٰذا الذنب أثر في نفسه، ومن أعظم الآثار أن يكون قلبه قاسيًا؛ إما بالإعراض عن الحق، وإما بأن تسلك البدع إلىٰ القلب، وهي أعظم وسائل القسوة، وإن كان في الظاهر قد يكون المبتدع لين القلب من جهة، لكنه في الحقيقة قلبه قاس عن الحق وعن ذكر الله.

وأهل العلم يستدلون بهٰذه الآية وهي قوله: ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ علىٰ تحريم التشبه بالكفار، والتشبه بالكفار محرم بعدة نصوص، مثل هٰذه الآية، وكقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود وجماعة: « وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»، وقوله

عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي في «الصحيح»: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ ؟ قَالَ: « فَمَنْ؟».

يعني هٰذا المكان الضيق الذي لا يمكن للإنسان أن يدخله لو دخله فارس والروم أو أهل الكتاب أو اليهود والنصارىٰ سيقول قائل منكم: هٰذا فيه فائدة أو سيسعني، وسيدخل كما دخلوا هٰذا الأمر الذي تنكره الفطرة وينكره العاقل صحيح العقل.

فهٰذه الآية دليلٌ علىٰ تحريم التشبه بالكفار وبأهل الكتاب بخاصة.

والتشبه بهم علىٰ أنحاء؛ أعظمه التشبه بهم في الكفر فيما يختصون به من عقائد ومن ضلالات ومن شرك وجحد للنبوات، أو إلحاد في آيات الله، أو تحريف الكلم عن مواضعه، أو ترك تحكيم الكتاب المنزل، ونحو ذلك، فهٰذا أعظم ما يكون من التشبه، يعني التشبه بهم في ترك أصل الملة وأصل الدين، وتحريف الاعتقاد.

وقد يكون التشبه بهم في بعض العبادات؛ مثلما حصل في الأمة من أن تشبه عدد ممن وسموا بالصلاح ووسموا بالطاعة باليهود والنصارىٰ في الخلوات، فجعلوا لهم صوامع وجعلوا لهم أماكن بعيدة عن الناس يتعبدون فيها بتعبد أهل الكتاب، يعني في أنواع التنسك كطريقة أولئك.

وقد يكون التشبه بهم في بعض مسائل الدين التي يختصون بها التي أذن لهم بها، وهي كثيرة، وقد دخلت علىٰ هٰذه الأمة، فتشبه بهم طائفة من هٰذه الأمة، إلىٰ غير ذلك من أنواع التشبه في الأخلاق والعادات والألبسة وأشباه ذلك.

وتعريف التشبه: هو قصدُ مشابهةِ الكفار فيما يختصون به.

فالتشبه فيه ثلاثة ضوابط: القصد أولًا، وحصول المشابه ثانيًا، والثالث: أن يكون ما اشترك فيه معهم فيما يختص به أهل الكتاب أو أهل الكفر، سواء ما اختصوا به في عقائدهم ودينهم المأذون به أو المبدل والمحرف عندهم، أو ما اختصوا به من الألبسة وأنواع الهيئات ونحو ذلك.

ويختلف عن التشبه المشابهة، وهي جزء من تعريف التشبه، والمشابهة ليست محرمة مطلقًا، وهي حصول التوافق في الصورة، وقد تكون محرمة وقد لا تكون، وإذا لم تكن المشابهة في بعض الصور محرمة فإنها إذا كانت فيما يختصون به فإنه ينهىٰ عنها، ودليله ما رواه مسلم في «الصحيح» أن النبي ﷺ رأىٰ علىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص ثوبين معصفرين، يعني مصبوغين بالعصفر، فقال له: «إِنَّ هٰذه مِنْ

ثِيَابِ الْكُفَّارِ فَلَا تَلْبَسْهَا» فدل على حصول المشابهة دون قصد التشبه ونهاه النبي ﷺ عن ذلك.

أما المشابهة المحرمة فهي ما كان محرمًا أصله في الدين، مثل المشابهة في العقائد والمشابهة في مسائل البدع ووسائل الشرك وأشباه ذلك. والمشابهة غير المحرمة ما يكون في الهيئات؛ مثل الألبسة وبعض الأحوال، فهٰذه قد يشابه الرجل الرجل لكن لا يكون متشبهًا إلا إذا قصد، يعني إذا شابههم فيما يختصون به، أما إذا وقعت المشابهة فيما لا يختصون به أو وقعت المشابهة لمصلحة فإنه لا بأس بذلك، ولا تؤثر المشابهة؛ لأن المحرم التشبه بالكفار، لهٰذا النبي ﷺ لما قدم المدينة كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه فكان يسدل شعره.

ووقوع المشابهة في أصلها، يعني في بعض الهيئات ونحو ذلك، إذا كانت مما لا يختصون به، فإنه إذا وقعت المشابهة ينهىٰ عنها، ولكن لا يأثم من فعلها دون قصد التشبه بهم.

ومثاله أيضًا في هٰذا المقام لبس بعض الألبسة التي لا يختصون بها، مثل (البدلة) الآن وأشباه ذلك، هٰذا لا يدخل فيما يختص بهم؛ لأنه صار شائعًا.

وينقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية في هٰذا أن باب الألبسة قد يكون خاصًّا في وقت ويكون شائعًا في وقت، يعني يوصف بالخصوصية في زمان ثم ينتشر فيكون شائعًا، ومعلوم أن هدي النبي ﷺ في اللباس أنه لبس ما لبسته العرب ولم يقصد المخالفة، فإذا كان اللباس شائعًا ولا يتميز من لبسه أنه كافر، يعني إذا رؤي هٰذا اللباس لا يقال: هٰذا لباس الكفار، وإنما يلبسه الناس مؤمنهم وكافرهم، فهٰذا لا يدخل في هٰذا الأصل، وثَم تفصيلات معروفة يمكن أن تطلب في مظانِّها.

قال جل وعلا: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ الأمد هنا هو الزمن ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ يعني أن الفسق في أهل الكتاب كثير، والله جل وعلا في الآية الأخرىٰ جعل أهل الكتاب قسمين: قال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾[المائدة]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] ونحو ذلك من الآيات.

وهاهنا اختلف أهل العلم: هل أهل الكتاب لهم التقسيمات الثلاث التي هي السابق بالخيرات والمقتصد والفاسق أو الظالم لنفسه، أم أنهم قسمان: المقتصد، والفاسق؛ علىٰ ظاهر قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾، أو ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾، فهل لا يوجد فيهم

السابق بالخيرات؟ من أهل العلم من قال: لا يوجد فيهم السابق بالخيرات. والأظهر أنه يوجد فيهم السابق بالخيرات، وأن التحديد في قوله: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ هٰذا ليس تحديدًا، وإنما هو تمثيل بمقتضىٰ الحاجة في الآية أو المناسبة في الآية.

الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يذهب إلىٰ أنهم قسمان، وعدد من أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين، لكن الأظهر أن أهل الكتاب منهم السابق بالخيرات ومنهم المقتصد ومنهم الظالم لنفسه كما هم في هٰذه الأمة، قال تعالىٰ: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [آل عمران].

الدرس الثامن

وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا شِهَابُ بْنُ خِراش، حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ دِينَارٍ، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي عَمِيلة الْفَزَارِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَدِيثًا مَا سَمِعْتُ أَعْجَبَ إِلَيَّ مِنْهُ، إِلَّا شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ-أَوْ: شَيْئًا قَالَهُ النبي ﷺ قال: «إن بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمُ اخْتَرَعُوا كِتَابًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، اسْتَهْوَتْهُ قُلُوبُهُمْ وَاسْتَحَلَّتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ وَاسْتَلَذَّتْهُ، وَكَانَ الْحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ فَقَالُوا: تَعَالَوْا نَدع بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَىٰ كِتَابِنَا هٰذا، فَمَنْ تَابَعَنَا عَلَيْهِ تَرَكْنَاهُ، وَمَنْ كَرِهَ أَنْ يُتَابِعَنَا قَتَلْنَاهُ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَكَانَ فِيهِمْ رِجُلٌ فَقِيهٌ، فَلَمَّا رَأَىٰ مَا يَصْنَعُونَ عَمَدَ إِلَىٰ مَا يَعْرِفُ مِنْ كِتَابِ اللهِ فَكَتَبَهُ فِي شَيْءٍ لَطِيفٍ، ثُمَّ أَدْرَجَهُ، فَجَعَلَهُ فِي قَرْنٍ ثُمَّ عَلَّقَ ذَلِكَ الْقَرْنَ فِي عُنُقِهِ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا الْقَتْلَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا هَؤُلَاءِ، إِنَّكُمْ قَدْ أَفْشَيْتُمُ الْقَتْلَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَادْعُوا فُلَانًا فَاعْرِضُوا عَلَيْهِ كِتَابَكُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تَابَعَكُمْ فَسَيُتَابِعُكُمْ بَقِيَّةُ النَّاسِ، وَإِنْ أَبَىٰ فَاقْتُلُوهُ. فَدَعَوْا فُلَانًا ذَلِكَ الْفَقِيهَ فَقَالُوا: تُؤْمِنُ بِمَا فِي كِتَابِنَا؟ قَالَ: وَمَا فِيهِ؟ اعْرِضُوهُ عليَّ. فَعَرَضُوهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، ثُمَّ قَالُوا: أَتُؤْمِنُ بِهٰذا؟ قَالَ: نَعَمْ، آمَنْتُ بِمَا فِي هٰذا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ الْقَرْنِ-فَتَرَكُوهُ، فَلَمَّا مَاتَ نَبَشُوهُ فَوَجَدُوهُ مُتَعَلِّقًا ذَلِكَ الْقَرْنَ، فَوَجَدُوا فِيهِ مَا يَعْرِفُ مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا هَؤُلَاءِ، مَا كُنَّا نَسْمَعُ هٰذا أَصَابَهُ فِتْنَةٌ. فَافْتَرَقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَخَيْرُ مِلَلِهم مِلَّةُ أَصْحَابِ ذِي الْقَرْنِ».

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَإِنَّكُمْ أَوْشَكَ بِكُمْ إِنْ بَقِيتُمْ-أَوْ: بَقِيَ مَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ -أَنْ تَرَوْا أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا، لَا تَسْتَطِيعُونَ لَهَا غِيَرًا، فَبِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنْكُمْ أَنْ يَعْلَمَ اللهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ لَهَا كَارِهٌ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: جَاءَ عتريس بن عُرقوب إِلىٰ بن مَسْعُودٍ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ هَلَكَ من لم يأمر بالمعروف وينهىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَلَكَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قلبُه مَعْرُوفًا وَلَمْ يُنْكِرْ قلبُه مُنْكَرًا؛ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ وَقَسَتْ قُلُوبُهُمُ، اخْتَرَعُوا كِتَابًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمُ، اسْتَهْوَتْهُ قُلُوبُهُمْ وَاسْتَحَلَّتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ، وَقَالُوا: نَعْرِضُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ هٰذا الْكِتَابَ فَمَنْ آمَنَ بِهِ تَرَكْنَاهُ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ قَتَلْنَاهُ. قَالَ: فَجَعَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ كِتَابَ اللهِ فِي قَرْنٍ، ثُمَّ جَعَلَ الْقَرْنَ بَيْنَ ثَنْدُوَتَيْهِ فَلَمَّا قِيلَ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِهٰذا؟ قَالَ آمَنْتُ بِهِ -وَيُومِئُ إِلَىٰ الْقَرْنِ بَيْنَ ثَنْدُوتيه-وَمَالِي لَا أُؤْمِنُ بِهٰذا الْكِتَابِ؟ فَمِنْ خَيْرِ مِلَلِهم الْيَوْمَ مِلَّة صَاحِبِ القرن.

وَقَوْلُهُ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ، تَعَالَىٰ، يُلِينُ الْقُلُوبَ

بَعْدَ قَسْوَتِهَا، ويَهدي الحَيَارىٰ بَعْدَ ضَلتها، ويفرِّج الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الهتَّان الْوَابِلِ كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الْإِضْلَالِ، وَالْمُضِلِّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَّالٌ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ، اللَّطِيفُ الخبير الكبير المتعال.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

أما بعد؛ فيقول الله جل جلاله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ هاتان الآيتان مترابطتان؛ لأن الثانية هي تعليل وفتح لباب التأمل والتدبر بما يصلح القلوب، فلما ذكر الله جل وعلا أن القلوب تقسو وأن أهل الكتاب من قبلنا طال عليهم الأمد فغيّروا في كتابهم وأحدثوا ما أحدثوا من البدع في أصل دينهم وفي فروعه، فعاقبهم الله جل وعلا بقسوة القلوب حتىٰ كانت كالحجارة أو كانت أشد قسوةً من الحجارة، وكانوا لا يأمر بعضهم بعضًا بالخير؛ بل كان كثير منهم فاسقين، لم ينصحوا ولم يرشدوا، ولم يعلموا ما تكون به حياة القلوب، فطال الأمد فقست القلوب، فذكر الله جل وعلا بعد ذلك أن هٰذا الذي أصاب أهل الكتاب يخشىٰ أن يصيب هٰذه الأمة؛ لأن قسوة القلب إنما تأتي عن أسباب.

ثم ضرب مثلًا لذلك بالأرض الميتة التي لا حياة فيها، وهي شبَه القلب القاسي الذي لا يهتز عن إيمان ولا يثمر عن يقين وأعمال صالحة؛ بل هو مُجدب، لا ينتج خيرًا ولا يبقي أثرًا وذكرىٰ.

وهٰذا الخطاب في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ لأهل الإيمان الذين خاطبهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وأنّ العبد المؤمن إذا كان في قلبه بعض القسوة أو غشيته القسوة أو جاءه الإعراض فإن حياة القلب ليست بالعمل العسير، فالله جل وعلا هو الذي يُحيي القلوب إذا بذل العبد الأسباب، وضرب مثلًا هنا فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾، ووجه الشَّبه ما بين الأرض الميتة والقلب القاسي أن القلب القاسي لا يستفيد منه أحد، وليس فيه لين؛ بل هو مجدب من الخير، نفعُه لصاحبه، همُّه دنياه،

ليس فيه إحسان للخلق، ولا فيه نظر في عواقب الأمور، والأرض الميّتة لا يستفيد منها إلا صاحبها أو من سار فيها علىٰ راحلة ونحو ذلك، ولا يستفيد منها الإنسان في نزولٍ ولا البهائم في أكل، وليس فيها ماء تكون به الحياة.

وهٰذا التمثيل؛ تمثيل الحياة بالماء وبالأرض الحية، وتمثيل قسوة القلوب بالجدب؛ جاء من غير هٰذه الآية؛ كقوله جل وعلا: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد]، قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ فهٰذه قطعةٌ مجدبة، وهٰذه قطعة مثمِرة أو منتجة سَهْلة تنبت زرعًا وتحفظ ماءً، وهٰذه سبِخة، وهٰذه طينة جيدة... وهكذا، وهٰذا مثال للقلوب التي نزل عليها وحي الإيمان؛ فمنها ما أثمر وأنتج، ومنها ما كان أجادب لا ينفع ولا يستفاد منه.

فقوله هنا جل جلاله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ هو دعوة لكل صاحب قلب قاسٍ، ألم يأن لذكر الله وما نزل من كتابه أن يتدبره في نفسه، ويعلم أن القلب الذي يبس ولا ثمر فيه ولا يهتز عن إيمانٍ وحب لله جل وعلا ورسوله وحسن توكل علىٰ الله جل جلاله أنه يمكن أن يحيىٰ بذكر الله وبما نزل من الحق، وهو القرآن.

والقرآن مشبه بالماء في القرآن في آيات كثيرة، والقلب مشبه بالأرض في آيات كثيرة، لهٰذا حياة القلوب هي كحياة الأرض، فحياة الأرض بالماء والمطر والغيث، وحياة القلوب إنما هي بذكر الله جل جلاله، وبالخشوع له، وبتدبر كتابه، وبعبادته جل جلاله.

فقوله سبحانه هنا: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ حجّة علىٰ كل من لم يسعَ في سبيل لين قلبه وحسن إيمانه وذلة القلب وخضوعه لربه جل وعلا، فها هو ينظر إلىٰ الأرض كيف تحيا، حيث ينزل الله عليها الماء فتخرج الكلأ والنبات الذي يغتذىٰ منه، والذي يسر الناظرين، وتكون به الفائدة في القريب وفي المآل للناس ولدوابهم، وما ينتج من ذلك من خير كثير.

وقوله سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ الأمر هنا فيه تأكيد لهٰذا الأصل العظيم وكون الأرض الميتة يحييها الله جل وعلا، وهٰذا أمر ظاهر معروف، لكنه لفتَ الأنظار إليه وأكده من أنه لا مفر من ذلك؛ لأن الله جل وعلا يحيي القلوب القاسية بنور الإيمان والذكر والقرآن، فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾، وهٰذا فيه دفع

مع التأكيد، فيه دفع للريب وللشك، وهٰذا أصل في أن من أمر بعلم شيء كان معلومًا عنده أنه يستفاد منه فائدتان:

الأولىٰ: التأكيد.

والثانية: دفع الشك والريب عن هٰذا الأصل وإحياء التذكُّر والتدبر له.

كقوله مثلًا: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾[المائدة]، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾[البقرة]، ونحو ذلك مما هو معلوم لدىٰ المؤمن.

قوله سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ الحياة تكون بحياة الظاهر وبحياة الباطن، وأكمل الحياة هي حياة الباطن. وحياة الظاهر مؤقتة، يأتيها ما يأتيها فيزيلها، وأما حياة الباطن وحياة القلب وحياة الروح فهٰذه هي الحياة الحقيقية، ولذلك جعل الله جل وعلا المؤمن حيًّا والكافر ميّتًا أو ميْتًا، فقال سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ [يس]، وقال جل وعلا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ الله وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ الله كَمَثَلِ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ». فدل علىٰ أن حياة النفس والقلب هي المقصود، وأن القلب هو الذي يصح أن تنسب له الحياة، والأرض التي لا نبات فيها ولا ماء ولو كان فيها بعض حياة ولكنها أرض ميّتة؛ لأن باطنها ليس فيه ماء، ولأن ظاهرها لم يستفد من باطنها في إخراج مكنوناته، وهٰذا يعني أن مفهوم الحياة والموت مفهوم شرعيّ وليس مفهومًا اجتهاديًّا، يعني باعتبار الظاهر وبحسب ما يظهر للناس، وإنما هو مفهوم شرعي.

فالقرآن فيه كثير من الآيات كالتي ذكرنا وكغيرها فيها تنبيه علىٰ أن الحياة هي حياة القلب، وأن المؤمن الحق هو الحي، وأن الصالح من عباد الله هو الحي، وأن غير هؤلاء فيهم من الموت نصيب؛ إما أن يكون موتًا كاملًا كحال الكافرين، أو موتًا ناقصًا كحال المعرضين أو المقصرين أو الذين قست قلوبهم.

قوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا﴾ (قد) هنا للتحقيق، يعني يتحقق تبيين الآيات، وقوله: ﴿بَيَّنَّا﴾ من البينة، يعني قد ظهرت البينات وقامت البيّنات والدلائل لكم، والبينة هي ما يبين الحق ويظهره، سواء أكان من الدليل المسموع أو كان من الدّليل المرئي، أو كان من الدليل المدرك بالقلب والتذكر والاعتبار، وهٰذه هي

أنواع البينة في القرآن:

الأولىٰ: سماعية بينة تثبت عن طريق السمع.

الثانية: بينة تثبت عن طريق العين والرؤية.

الثالثة: بينة تثبت عن طريق التأمل والإدراك والتفكر.

وهكذا هي آيات الأنبياء كما سيأتي، فبينات الأنبياء هي عن أحد هٰذه الطرق؛ إما المسموع وإما المرئي وإما المدرك بالقلب والعقل.

قوله: ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ جاء في بعض الآيات: ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ [البقرة: ١١٨] هنا قال: ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ ونحوها في سورة آل عمران: ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾، فما الفائدة في مجيء (لكم) في بعض الآيات وعدم مجيئها في آيات أخر؟

اللام هنا في قوله: (لكم) الأظهر أنها لام التعليل، يعني من أجلكم، يعني قد بيَّنَّا الآيات من أجلكم، قد بيَّنَّا الآيات لعلّة أنكم تدركون.

والآيات جمع آية، والآية هي الدليل الواضح الذي يدل علىٰ مضمونه بلا ريب، يعني البيّنة أضعف من الآية؛ لكن الآية هي والبرهان أعظم؛ لأن البرهان ما كان كبرهان الشمس، وهو شعاعها الذي يكون أول ما تخرج، فإنه ظاهر دال علىٰ أن الشمس أشرقت، ولذلك سُميت الحجة القاطعة برهانًا لأجل أنها كالضوء الساطع الذي لا يستطاع رده، والآية هي الدليل كما ذكرتُ لك البيِّن الواضح الذي لا لبس فيه، الذي يدل علىٰ مضمونه أو علىٰ مقتضاه.

والآيات والبراهين أعطاها الله جل وعلا الأنبياء، ومنها آيات كما ذكرنا في البينة سماعية، ومنها آيات مرئية، ومنها آيات لله جل وعلا مُدركة، فمن الآيات السمعية آي القرآن الكريم، ولهٰذا سُميت آية؛ لأنها دليل واضح ظاهر، لا ريب فيه، ولا شك علىٰ مضمونه وفيما اشتمل عليه، والقرآن كله آية وكل سورة منه آية، يعني هو آية لنبينا عليه الصلاة والسلام، وكل آية منه آية، وإن كان العلماء يقولون: لم يقع التحدي بآية إنما وقع التحدي في القرآن: بالقرآن كله أو بعشر سور أو بسورة، كما قال جل وعلا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء].

وكقوله: ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ ﴾ [هود: ١٣].

وكقوله: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة].

أما الآية فلم يقع بها تحدٍّ؛ لكنها سميت آية، والآية في تعريفها تنطبق علىٰ كل جملة من جمل القرآن، فإن كل قطعة أو جملة وكل مقطع سمي آية فيه الدلالة الواضحة البينة علىٰ أن هٰذا من كلام الله جل وعلا، وعلىٰ أن فيه من الدليل علىٰ وحدانية الله أو علىٰ صدق نبيه، أو علىٰ أن هٰذا القرآن من عند الله جل وعلا.

ومن الآيات المرئية مثلًا لنبينا عليه الصلاة والسلام انشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه، وهٰذا قد أعطاه الله جل وعلا أيضًا عددًا من الأنبياء؛ كعيسىٰ عليه السلام؛ يحيي الموتىٰ بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وكعصا موسىٰ عليه السلام وأشباه ذلك.

النوع الثالث: آيات مدركة، والله جل وعلا أعطىٰ بعض الأنبياء آيات لكنها آيات مدركة، ليست آيات مرئية أو مسموعة، هٰذا كثير، حتىٰ إن هودًا عليه السلام قال طائفة من أهل العلم: إنه لم يعط آية، ويستدلون علىٰ ذلك بقوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود]، قالوا: ولم يأت في القرآن آية له، والمقصود بذلك أنه لم يذكر أنه أوتي آية مسموعة أو مبصرة، لكن الآية المدركة التي تدركها النفس ويدركها القلب ويتفكر فيها العقل ظاهرة، وهي أن هٰذا الفرد الواحد معه من التأييد والقوة ما يخالف أُمة زمانه بكاملها، ويعلن الحق ويتبرأ من معبوداتهم، ولا يستطيع أحد أن يؤذيه أو أن يوصل إليه سوءًا، ثم مع ذلك فإنه انتصر عليهم وغلبهم، وهٰذا دليل يتفكر فيه ويتأمل فيظهر كونه آية وبرهانًا.

المقصود أن قوله جل وعلا: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ يشمل الآية المسموعة والآية المرئية ويشمل الآية المدركة، وفي هاتين الآيتين الثلاث آيات جميعًا:

الآية المسموعة في قوله جل وعلا: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾.

والآية المرئية، وهي أنهم يرون أهل الكتاب كيف حرفوا كتابهم وكيف غيروا سبيله وكيف بدلوا، فقست قلوبهم، وهم يرون قسوة قلوب اليهود وقسوة قلوب كثير من النصارىٰ وأنهم لم ينتفعوا بما عندهم، بل كان كثير منهم موصوفًا بالفسق والضلال.

ثم الآية المدركة التي إذا تأملها الإنسان علم مضمونها أو علم مقتضاها أو ما دلت عليه، وهي إحياء

الأرض بعد موتها بقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ (لعل) في الأصل للترجي، والله جل وعلا يدعو عباده للعقل، فإذا كان في الآية كلمة (لعل) فإنها إذا أضيفت إلىٰ الله جل وعلا فإنها علىٰ سبيل التحقيق، وكذلك (عسىٰ)، وإذا جاءت في الآية للمخلوق فإنها دعوة إلىٰ ما بعدها؛ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ هٰذه دعوة للعقل والتفكر والتدبر.

﴿تَعْقِلُونَ﴾ (عَقَلَ) هٰذا فعل متعدٍّ، عقَلَ المرءُ الشيءَ، فهنا المفعول ليس موجودًا، وهٰذا كثير في القرآن دائمًا أن يحذف مفعول تعقلون؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد] وأشباه ذلك، فلماذا حذف أولًا ؟ ثم ما التقدير ثانيًا ؟

أما حذفه فلسببين:

الأول: أن السياق يدل عليه.

والثاني: لإعمال الفكر أيضًا فيما طُلب عقلُه والتفكر فيه.

وأما التقدير فالمحذوف يُقدر في كل آية أو في كل جملة بما يناسبها، فقوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ يعني لعلكم تعقلون ما به سبب حياتكم ونجاتكم وخشوع قلوبكم لذكر الله.

***

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا يُثِيبُ بِهِ المُصَّدقين والمُصَّدقات بِأَمْوَالِهِمْ عَلَىٰ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ، ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أَيْ: دَفَعُوهُ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، لَا يُرِيدُونَ جَزَاءً مِمَّنْ أَعْطَوْهُ وَلَا شُكُورًا؛ وَلِهٰذا قَالَ: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ أَيْ: يُقَابِلُ لَهُمُ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَيَزْدَادُ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَفَوْقَ ذَلِكَ ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ أَيْ: ثَوَابٌ جَزِيلٌ حَسَنٌ، وَمَرْجِعٌ صَالِحٌ وَمَآبٌ ﴿كَرِيمٌ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ هٰذه الآية كما سمعت في تفسيرها فيها التأكيد من الله جل جلاله علىٰ أن الذي يبذل ماله ويتصدق ويقرض الله قرضًا حسنا بما فعل وبما قدم وما تصدق وما أنفق فإنه يضاعف له ذلك، والمضاعِف هو الرب جل جلاله، وليس لأضعافه سبحانه نهاية؛ كما جاء في الحديث: «ما من أحد يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا وقعت في كف الرَّحمٰن فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فوله، حتىٰ تكون كأعظم من الجبل» وفي الحديث الآخر: أن التضعيف إلىٰ عشرة أضعاف إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، ثم وعد الله بأن له الأجر الكريم الذي فاق جميع الأجور في عدده وفي وصفه وصار متميزًا فيما يوصف به من كونه أجرًا وثوابًا وعاقبة.

وقوله هنا: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ مصّدّق أصلها متصدق، يعني: المتصدقين والمتصدقات، وفي قراءة ابن كثير، وهي سبعية: ﴿إِنَّ المصَدقين والمصَدقات﴾ من التصديق لا من الصدقة، والقراءتان معناهما مختلف ودلالتهما في هٰذا السياق أيضًا مختلفة:

فأما ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ فإنها من الصدقة، وهي قراءة الأكثر من السبعة، والصدقة هنا مناسبة؛ لأن الصدقة جاءت بعد ذكر حياة القلوب وقسوة القلوب وضرب المثل لذلك، والصدقةُ بالمال والصدقة بجميع أنواعها بما سياتي هٰذه فيها لين القلب وتخلص القلب من الشح والرغبة فيما عند الله جل وعلا.

وأما ﴿المصَدقين﴾ بمعنىٰ التصديق؛ فهٰذا أيضًا مناسب لما قبله، خلافًا لمن قال: إنه لا يناسب الآية قبلها؛ لأن التصديق هو أساس الاستفادة من الأمثال، وأساس الاستفادة من أوامر الله جل وعلا، فلما أمر الله جل وعلا بذكره وخشوع القلب له بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن الصحابة

رضخوا لذلك، لا لكونهم متصدقين، ولكن لكونهم مصدّقين. وهٰذا من فوائد تعدد القراءات، ومن فوائد تعدد الأحرف السبعة في الأصل أن كل حرف من الأحرف السبعة أو كل قراءة من القراءات الموجودة السبعة أو العشر أو القراءات المتواترة الأخرىٰ أنها تعطي معاني كثيرة مختلفة توسع دلالة القرآن وتوسع مدارك المؤمن فيما أخبر الله جل وعلا به أو أمر أو نهىٰ أو حض عليه أو حث.

فقوله هنا: ﴿إِنَّ المصَدقين والمصَدقات﴾ علىٰ القراءة الأخرىٰ هٰذا فيه ذكر التصديق، وأن الله جل وعلا يضاعفُ للمصدقين، وهٰذا يوافق في الأصل وهو أن التضعيف الذي أخبر به النبي ﷺ أن المؤمن إذا جاء بالحسنة أو تصدق فإن الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة يختلف بحسب تصديق العبد ومقامه في الإيمان وحسن يقينه وصدق توكله علىٰ الله جل وعلا ومحبته له، وهٰذا يختلف باختلاف الناس؛ فمنهم من يعمل كثيرًا لكن المضاعفة لهم قليلة، ومنهم من يعمل قليلًا ولكن يضاعف له إلىٰ أضعاف كثيرة لا يعلم كثرتها ولا عددها إلا الله جل وعلا.

لهٰذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال فيه النبي ﷺ: «لَوْ وُزِنَ إِيمانُ أَبِي بَكْرٍ بإيمانِ أَهْلِ الأرضِ لَرَجَحَ بِهِمْ» فقال أحد القراء وهو شُعبة: ما سبقهم أبو بكرٍ بكثرة صلاةٍ ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه.

وهٰذا في الحقيقة مناسب لهٰذه الآية، خلافًا لمن زعم أنه غير مناسب؛ بل كل قراءة من القراءات تفيد معنًىٰ غير الذي في القراءة الأخرىٰ.

فقوله هنا: ﴿إِنَّ المصَدقين والمصَدقات﴾ هٰذا فيه ذكر التصديق، وأثر التصديق في حياة القلوب، وهٰذا ربط بالآية التي قبلها حيث أثر التصديق في المضاعفة والأجر الكريم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ هٰذا فيه ذكر الصدقة، والمصَّدِّقين هم الذين يُكثِرون الصدقة، والمصدقات هن اللاتي يكثرنَ الصدقة.

والصدقة هنا ظاهر أن المراد منها صدقة المال، ولكنها في القرآن أوسع؛ فإن هناك صدقة المال، ثَم صدقة اللسان، ثَم صدقة الجوارح، والمفاصل، كما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كُلُّ سُلَامَىٰ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ» وهي مفصل الإنسان، فعلىٰ كل مفصل من مفاصل الإنسان صدقة يبذلها، منها صدقات قولية، ومنها صدقات عملية، ومنها إنفاق، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي آخر الحديث: «وَيُجْزِئُ عَنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَىٰ». هٰذا فيه المعنىٰ الواسع للصدقة.

فهل هٰذه الآية المراد منها الصدقة بالمال أو الصدقة بمعناها الواسع؟

الأظهر أن المراد منها صدقة المال؛ لأنه قال بعدها: ﴿ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾، والقرض الحسن هٰذا إنما يكون في صدقة المال، كما مر في الآيات التي قبلها: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ بعد أن ذكر النفقة في قوله: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ إلىٰ آخر الآية.

وقوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ هٰذه جملة اعتراضية، يعني جاءت بين الاسم والخبر.

وقد ذكرت فيما مضىٰ معنىٰ القرض، وأن القرض حقيقة وليس مجازًا؛ لأن الله جل وعلا هو الذي سماه قرضًا، ولأنه يعطي الإنسان بدله يوم القيامة، ويوفيه الله جل وعلا أجره.

ثم قال في آخر الآية: ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ كلمة (كريم) في القرآن وفي اللغة معناها: ما فاق أو ما زاد عن جنسه في صفات الكمال بحسبه، فالكريم من النبات ما كان أفضل جنسه؛ كما قال جل وعلا في أول سورة الشعراء: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الشعراء]، الكريم من النبات هو ما كان أفضل جنس مما ينبت، وهٰذا ظاهر فيما يخرجه ماء المطر من النبات فإنه أفضل من جنس النبات الباقي أو الدائم، كذلك الإنسان يقال: هٰذا كريم إذا صار فيه صفات الكمال وصفات يُحمد عليها، مثل أن يكون ذا نجدة في المعروف، ومثل أن يكون متصدقًا يبذل وجهه ويبذل جاهه ويبذل ماله، يبذل الندىٰ، يسعىٰ في الخير، ومنه أيضًا أن يكون ممن يَقري الأضياف، ولٰكِن العرب خصت الذي يقري الضيف بالكرم؛ لأن هٰذه الصفة كانت أعظم الصفات، وقل من يفعل ذلك.. فيقال: هٰذا رجلٌ كريم، يعني فاق الناس في صفات الكمال البشري؛ لأنه صار يكرم الأضياف... إلىٰ آخره.

وهنا نعت الله جل وعلا الأجر ووصفه بأنه كريم، قال: ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ أي: أجرٌ فاق أنواع الأجور في وصفه، والأجر له جهتان: جهة كم، وجهة كيف، والأجر الذي وعد الله به عباده يكون فاق غيره أو فاق جنس الأجور التي يتعاطها الناس كيفًا وكمًّا، عددًا ووصفًا، والله جل وعلا هو الأعلم بحدود ذلك جل جلاله وتقدست أسماؤه، وهٰذا في الحقيقة فيه لطف الله جل وعلا بعباده، وفيه رحمة الله بعباده وحسن إثابته لهم، فإنهم يعملون الأعمال القليلة ثم يُعطَون عليها الأجور الكريمة والمباركة وحسن الثواب.

وإذا تأمل العبد وجد أن أصل انبعاث العمل في نفس المؤمن إنما هو من الله جل وعلا.. إن أصل انبعاث العمل وحب الإيمان، وحب الله جل وعلا، وحب رسوله ﷺ، وتحقيق توحيد الله جل وعلا،

والإنابة والقيام بالعبادات؛ أصل ذلك من الله جل وعلا، بهٰذا قال في آية سورة الحجرات: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾، يمن عليكم يعني يعطي عطاءً لم تأتوا منه بسبب، فالله جل وعلا يمن علىٰ العبد بوجود الإيمان وبانبعاث النفس في أنواع الخير، ومع ذلك هو جل وعلا يضاعف للعبد؛ لأنه بذل الأسباب في ذلك ورغب فيه بطوعه واختياره.

والله ﷻ يعين العبد ويوفقه، والعبد إذا أراد سبب الخير وأقبل عليه فإن الله يعينه ويوفقه، ومع ذلك يأجره ويُثيبه ويرفع درجته ويضاعف له ويعطيه الأجر الكريم في وصفه وفي ذاته، فهل بعد هٰذا الكرم كرم ؟! وهل بعد هٰذه الرحمة رحمة ؟! وهل بعد هٰذا الإحسان إحسان ؟!

والناس يحبون من يحسن إليهم، يحبون من الناس من يبذل لهم من المعروف، ولو شيئًا يسيرًا، ومن يحسن إليهم ولو شيئًا يسيرًا، ومن يتودد لهم ولو شيئًا يسيرًا، أليس الله جل جلاله وتقدست أسماؤه هو الأحق بحب العبد له وبذله له، وبإقباله عليه بإخلاص الدين له وعدم رؤية الأغيار، وبأن يستعمل الإخلاص في كل أحواله وفي كل أعماله، وألا يرىٰ شيئًا من الدنيا يصرفه عن الله جل جلاله ؟! لا شك أن هٰذا متعين، وفي هٰذه الآيات فتح لأبواب الخير للقلب من مصارعها.. أعاننا الله وإياكم علىٰ الحق والهدىٰ، وجنب قلوبنا القسوة، وجعلنا من المصدقين والمتصدقين، إنه سبحانه جوَاد كريم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

***

الدرس التاسع

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ هٰذا تَمَامٌ لِجُمْلَةِ، وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ بِأَنَّهُمْ صِدِّيقُونَ.

قَالَ العَوْفِي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ هٰذه مَفْصُولَةٌ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

وَقَالَ أَبُو الضُّحَىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ فَقَالَ: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وَهَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: هُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: يَعْنِي الْمُصَدِّقِينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النِّسَاء: ٦٩] فَفَرَّقَ بَيْنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُمَا صِنْفَانِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الصِّدِّيقَ أَعْلَىٰ مَقَامًا مِنَ الشَّهِيدِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، رَحِمَهُ اللهُ، فِي كِتَابِهِ الْمُوَطَّإِ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: «بَلَىٰ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ».

اتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَىٰ إِخْرَاجِهِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، بِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فَأَخْبَرَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ بِأَنَّهُمْ صِدِّيقُونَ وَشُهَدَاءُ. حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مجاهد، ثم قال ابن جرير:

حدثني صالح بن حَرْبٍ أَبُو مَعْمَر، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا ابْنِ عَجْلان عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مُؤْمِنُو أُمَّتِي شُهَدَاءُ». قَالَ: ثُمَّ تَلَا ﷺ هٰذه الْآيَةَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ هٰذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ قَالَ: يجيؤون يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعًا كَالْإِصْبَعَيْنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي

حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً فَقَالَ: مَاذَا تُرِيدُونَ؟ فَقَالُوا: نُحِبُّ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَىٰ الدَّارِ الدُّنْيَا فَنُقَاتِلَ فِيكَ فَنُقْتَلَ كَمَا قُتِلنا أَوَّلَ مَرَّةٍ. فَقَالَ إِنِّي قَضَيْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ».

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أَيْ: لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أَجْرٌ جَزِيلٌ وَنُورٌ عَظِيمٌ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَتَفَاوَتُونَ بِحَسَبِ مَا كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أحمد:

حدثنا يحيىٰ بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعَة، عَنْ عَطَاءِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَبِي يَزِيدَ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيد يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ فَقُتِلَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهِ هَكَذَا-وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّىٰ سَقَطَتْ قَلَنْسُوة رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوَ قَلَنْسُوَةُ عُمَرَ-وَالثَّانِي مُؤْمِنٌ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يَضْرِبُ ظَهْرَهُ بِشَوْكِ الطَّلْحِ، جَاءَهُ سَهْمٌ غَرْب فَقَتَلَهُ، فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَالثَّالِثُ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّىٰ قُتِلَ، فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ، وَالرَّابِعُ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ أَسْرَفَ عَلَىٰ نَفْسِهِ إِسْرَافًا كَثِيرًا، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّىٰ قُتِلَ، فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ».

وَهَكَذَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، عَنْ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنِ ابْنِ لَهِيعَة، وَقَالَ: هٰذا إِسْنَادٌ مِصْرِيٌّ صَالِحٌ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ لَهِيعَةَ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّعَدَاءَ وَمَآلَهُمْ، عَطَفَ بِذِكْرِ الأشقياء وبين حالهم.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه، اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وهيئ لنا من أمرنا رشدا.

أما بعد؛ فهٰذه الآية من سورة الحديد يقول الله جل وعلا فيها: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ في هٰذه الآية تذكير للمؤمنين بالله جل جلاله والمؤمنين برسله بأنهم إذا كملت درجة إيمانهم وصلوا إلىٰ مرتبة الصديقية التي هي من أعلىٰ مراتب الإيمان؛ بل أعلىٰ مراتب الإيمان في هٰذه الأمة، والصديقون جمع صدّيق، وهو الذي عظم صدقه، فالصديق فعيل مبالغة من

صادق أو مصدق، وهٰذه إنما تنبغي لمن كمُل تصديقه بالله جل وعلا، وبما أخبر الله جل وعلا به عن ذاته جل جلاله، وعن أمور الغيب، وعما سبق وعما سيأتي، فهم مصدِّقون بذلك تصديقًا عظيمًا شديدًا كأنهم يرونه.

والتصديق هٰذا يتفاوت الناس فيه، فهم ليسوا فيه علىٰ مرتبة واحدة، فمنهم من يكون تصديقه قويًّا شديدًا، ومنهم من يكون أقل من ذلك، ولذلك سمعت الخلاف في هل الصديقون غير الشهداء، أم أن الصديقين والشهداء طائفة واحدة ؟ علىٰ قولين معروفين عند السلف في هٰذه الآية، وسبب الخلاف في ذلك أمران:

الأول: أن الشهادة تختلف عن مرتبة الصديقية، فالشهيد غير الصديق من جهة اللفظ ومن جهة المعنىٰ، ومن جهة أيضًا ما جاء في النصوص من ذكر الصديقين وذكر الشهداء؛ كما قال جل وعلا في الآية الأخرىٰ في سورة النساء: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠ ﴾، والأصل في الواو أنها للمغايرة؛ مغايرة الفئات، فيكون الصديقون غير الشهداء.

الثاني: أن سياق الآية فيه ما يُشعِر بالمفارقة ما بين الصديقين والشهداء، فجعل الصديقين في خبر، وجعل الشهداء في خبر، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ ﴾ وقال بعدها: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ ﴾، فتلك جملة وهٰذه جملة، والسياق يشعر بأن الجملتين خبريتان، كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرىٰ، ولهٰذا عطف بعدُ فذكر فئتي الكفار فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إلىٰ آخره. وقد ساق ابن كثير شيئا مما يَشهَدُ لهٰذا وهٰذا.

ومن قال: إن الصديقين هم الشهداء فهٰذا محمول علىٰ أن الشهيد في هٰذا المقام لما استشهد صار صديقًا؛ لأنه أثبت تصديقه العظيم وأثبت شهادته الصدق بأن بذل دمه في سبيل الله جل وعلا، وهٰذا يدل عليه الحديث الذي ساقه الحافظ ابن كثير عن فَضالة بن عُبيد عن عمر عن رسول الله ﷺ.

وهناك من يحمل المعنىٰ علىٰ أن الشهداء هنا ليسوا جمع شهيد، وإنما هم جمع شاهد، فإنه يأتي من كل أمةٍ شهيد، وليس الشهيد من الشهادة في الدنيا وهي القتل في سبيل الله، وإنما بمعنىٰ الشهادة؛ بأنه يشهد علىٰ غيره، وإنما يشهد علىٰ الأقوام خيرُهم وأعيانهم وأفضلهم؛ كما قال جل وعلا: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا

جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء]، فكل أمة لها شهيد يشهد عليها.

وقال جل وعلا في آخر سورة الزمر: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر].

الشهداء هنا هم الذين يشهدون علىٰ ما فعل أقوامهم من خيرٍ أو شر، ويشهدون للمرسلين بالبلاغ، ويشهدون علىٰ الأمة بأنها بلغت، فيكون حينئذ العطف بالواو عطف مغايرة الصفات، وليس بعطف مغايرة ذوات، وإذا تأملت الآية لن تجد فيها ما يرجح أحد الجهتين؛ فإن هذين القولين متقاربان؛ من قال بالتفريق فله دليله، ومن قال بأنهما فئة واحدة فله دليله أيضًا، وبقاؤها علىٰ ما يحتمل القولين أولىٰ لظهور فائدة التنويع وتعدد التفسير علىٰ فهم الآية.

قال جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ ﴾ معلومٌ أن الإيمان بالله يتفاضل الناس فيه، وكذلك الإيمان بالرسل يتفاضل الناس فيه، قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ فالصديقون يتفاوتون في درجة الإيمان، وإذا كان التصديق كما هو معلوم في القلب فإن التصديق يكون في القلب ويكون أيضًا في العمل، فلا ينعزل العمل عن أن يكون تصديقًا؛ إما لأنه أثر لتصديق القلب ملازم له، لا ينفك عنه، أو أنه من التصديق وجزءٌ منه باعتبار التصديق الشرعي لا التصديق اللغوي، ولهٰذا قال جل وعلا في سورة الصافات لما أخبر عن قصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ يعني حصل الفعل؛ أسلما واستسلما لله جل وعلا ولأمره، هٰذا يذبح وذاك مذبوح ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ فدل علىٰ أنه حصل التصديق بعد مباشرة العمل.

لهٰذا قال طائفة من أهل السنة: إن التصديق اللغوي غير التصديق الشرعي؛ فالتصديق اللغوي هٰذا هو تصديق القلب مجردًا، بمعنىٰ أنه يصدق بالخبر ولا يكون عنده ريب فيما أخبر به حيث اعتقاد القلب، وأما التصديق الشرعي فإنه ينضم إلىٰ ذلك عمل، العمل الذي يدل عليه التصديق، استدلوا بهٰذه الآية، فقوله هنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ دليلٌ علىٰ أن الصديقين بلغوا أعلىٰ المراتب؛ لأنهم جعلوا تصديقهم عملًا واعتقادًا وقولًا، كما هي حال صديقي هٰذه الأمة؛ كأبي بكر وعمر وعثمان والعشرة ونحوهم رضي الله عنهم.

والإيمان بالرسل يعنىٰ به الإيمان بالرسل البشريين الذين جاؤوا بالرسالات لبني الإنسان، والإيمان بهم هو ركن من أركان الإيمان كما هو معلوم، فقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ ﴾ يشمل أركان الإيمان الستة، ثم قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ وهٰذه فيها من جهة البلاغة رفع لمنزلتهم لَمّا جاء بـ(أولئك)؛ لأن أصل الخبر: والذين آمنوا بالله ورسله هم الصديقون، فلما جاء بـ(أولئك) دل علىٰ رفعة منزلتهم وعظم شأنهم عند مولاهم جل جلاله.

وقوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ كما ذكرت لك فيها وجهان من الإعراب:

الأول: أن تكون الواو عاطفة تعطف (الشهداء) علىٰ (الصديقون)، فيكون الكلام: أولئك هم الصديقون عند ربهم وهم الشهداء عند ربهم.

الثاني: أن تكون الواو هنا استئنافية، فيكون (الشهداء) مبتدأ، وتكون جملة (لهم أجرهم ونورهم) هي الخبر.

والشهداء كما ذكرت لك جمع شهيد، والشهيد هو الشاهد، وقد تكون الشهادة بالقول وقد تكون الشهادة بالفعل والعمل، فالشهادة بالقول هي أن يشهد علىٰ غيره، والشهادة بالفعل هي أن يهراق الدم في سبيل الله تعالىٰ.

ولفظ الشهيد من الألفاظ التي جاءت بعد الشريعة، والعرب لا تسمي من قتل في المعركة شهيدًا؛ لأن القتل عندهم لا يدل علىٰ أنه شهد علىٰ شيء، وهٰذا الذي استشهد في سبيل الله صار شاهدًا بدمه وشاهدًا بما بذل علىٰ أنه يريد الدار الآخرة، وعلىٰ أن الجنة حق والنار حق، وعلىٰ أن هٰذا الدين حق، ولهٰذا عظم أجرهم؛ لأن ونفعهم وتصديقهم وإيمانهم صار في مرتبة رفيعة.

وأما الشهادة القولية فالمقصود بها هنا الشهادة في الآخرة، وهي أن يبعث الشهداء يشهدون علىٰ أممهم وعلىٰ أقوامهم.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في «الصحيح» وغيره أن النبي ﷺ قال: « لا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

وكلمة (عند) في قوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ من أهل العلم ومن أهل السنة من استدل بها علىٰ علو الله جل جلاله؛ لأن العندية هنا هي عندية علو؛ لأنها تقتضي في هٰذا المقام رفع درجة الشهداء، وكما جاء في الحديث: « أرواح الشُّهَداءِ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لها قَناديلُ مُعَلَّقَةٌ بالعَرْشِ تَسْرَحُ منَ الجنةِ حيثُ شاءَتْ

ثمَّ تَأْوِي إلىٰ تِلْكَ القَناديلِ».

وقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ مر معنا في هٰذه السورة أن الأجر هنا علىٰ حقيقته، وهو ما يعطاه الإنسان مقابل عملٍ عمله، وإن كان لا يأخذه إلا برحمة الله جل وعلا، وبفضل، لا بمحض المقابلة. والنور هنا ذكر في عدة آيات في هٰذه السورة وفي غيرها، وقد ذكرتُ أن النور يتفاوت الناس فيه؛ فمنهم من يعطىٰ نوره في إبهامه، ومنهم من يعطىٰ نوره كالبرق... وهكذا، بحسب درجاتهم في دينهم.

***

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوهِنًا أَمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمُحَقِّرًا لَهَا: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا حَاصِلُ أَمْرِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا هٰذا، كَمَا قَالَ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران]

ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي أَنَّهَا زَهْرَةٌ فَانِيَةٌ وَنِعْمَةٌ زَائِلَةٌ فَقَالَ: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وَهُوَ: الْمَطَرُ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ قُنُوطِ النَّاسِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشُّورَى: ٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أَيْ: يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ نَبَاتُ ذَلِكَ الزَّرْعِ الَّذِي نَبَتَ بِالْغَيْثِ؛ وَكَمَا يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ذَلِكَ كَذَلِكَ تُعْجِبُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْكُفَّارَ، فَإِنَّهُمْ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَأَمْيَلُ النَّاسِ إِلَيْهَا، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أَيْ: يَهِيجُ ذَلِكَ الزَّرْعُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا بَعْدَ مَا كَانَ خَضِرًا نَضِرًا، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلُّهُ حُطَامًا، أَيْ: يَصِيرُ يَبَسًا مُتَحَطِّمًا، هَكَذَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا تَكُونُ أَوَّلًا شَابَّةً، ثُمَّ تَكْتَهِلُ، ثُمَّ تَكُونُ عَجُوزًا شَوْهَاءَ، وَالْإِنْسَانُ كَذَلِكَ فِي أَوَّلِ عُمْرِهِ وَعُنْفُوَانِ شَبَابِهِ غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنَ الْأَعْطَافِ، بَهِيَّ الْمَنْظَرِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْرَعُ فِي الْكُهُولَةِ فَتَتَغَيَّرُ طِبَاعُهُ وَيَنْفَدُ بَعْضُ قُوَاهُ، ثُمَّ يَكْبَرُ فَيَصِيرُ شَيْخًا كَبِيرًا، ضَعِيفَ الْقُوَى، قَلِيلَ الْحَرَكَةِ، يُعْجِزُهُ الشَّيْءُ الْيَسِيرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الرُّوم]. وَلَمَّا كَانَ هٰذا الْمَثَلُ دَالًّا عَلَى زَوَالِ الدُّنْيَا وَانْقِضَائِهَا وَفَرَاغِهَا لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ، حَذَّرَ مِنْ أَمْرِهَا وَرَغَّبَ فِيمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ، فَقَالَ: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أَيْ: وَلَيْسَ فِي الْآخِرَةِ الْآتِيَةِ الْقَرِيبَةِ إِلَّا إِمَّا هٰذا وَإِمَّا هٰذا: إِمَّا عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَإِمَّا مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أَيْ: هِيَ مَتَاعٌ فَانٍ غَارٌّ لمن ركن إليه فإنه يغتر بِهَا وَتُعْجِبُهُ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا دَارَ سِوَاهَا وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا، وَهِيَ حَقِيرَةٌ قَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ ابْنُ حَرْبٍ الْمَوْصِلِيُّ، حَدَّثَنَا الْمُحَارِبِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجنة خير من الدنيا وما فيها. اقرؤوا:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾»

وَهٰذا الْحَدِيثُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِ بِدُونِ هٰذه الزِّيَادَةِ (وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ ووَكِيع، كِلَاهُمَا عَنِ الْأَعْمَشُ، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَلْجنة أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ فِي «الرِّقَاقِ»، مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ، عَنِ الْأَعْمَشِ، بِهِ

فَفِي هٰذا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَىٰ اقْتِرَابِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَلِهٰذا حَثَّهُ اللهُ عَلَىٰ الْمُبَادَرَةِ إِلَىٰ الْخَيْرَاتِ، مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، الَّتِي تُكَفِّرُ عَنْهُ الذُّنُوبَ وَالزَّلَّاتِ، وَتُحَصِّلُ لَهُ الثَّوَابَ وَالدَّرَجَاتِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَالْمُرَادُ جِنْسُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران]. وقال هاهنا: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ أَيْ: هٰذا الَّذِي أَهَّلَهُمُ اللهُ لَهُ هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنِّهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَدَّمنا فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثور بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟». قَالُوا: يُصلُّون كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، ويُعتقون وَلَا نُعْتِق. قَالَ: «أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ: تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ». قَالَ: فَرَجَعُوا فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ مَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يؤتيه من يشاء».

قال جل وعلا هنا: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

هٰذه الآية أصل في أن الدنيا محقرة عند رب العالمين، وأنها مزهد فيها، وأنها ليست بدار قرار، وإنما هي دار عبور، وأنه لا يغتر فيها إلا المغرور، وأما العاقل البصير الذي نفذ الإيمان إلىٰ قلبه فإنه لا يغتر بهٰذه الحياة الدنيا مهما بلغت زينتها، ومهما بلغ اهتزازها، ومهما بلغت نضرتها، لهٰذا قال جل وعلا: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ إلىٰ آخر الآية.

وفي قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ هنا ما يفيد التنبيه علىٰ المراد من هٰذا المثل، وعلىٰ المراد من هٰذا الخبر، وعلىٰ

الحكمة منه، فالمراد أن يستيقظ الإنسان من غفلته ومن إعجابه بهٰذه الدنيا وركونه إليها ليعلم أنها لعب ولهو وزينة، ولا شك أن اللعب غير محمود عند عقلاء الناس وكذلك اللهو، وأما الزينة فهي متاع يذهب، ليس بثابت، فهٰذا الأمر في قوله: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ مفيدٌ للفت النظر إلىٰ الحقائق وأن الإنسان ينبغي له أن يدرك العلم الذي وراء ما يجري، ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ يعني اطلبوا العلم، والعلم هو الحقيقة الموافقة للواقع، فهل الحقيقة الموافقة للواقع أن هٰذه الحياة هي المقصودة! وهل الحقيقة الموافقة للواقع أن هٰذه الحياة باقية! وأنها تُطلب مطلقًا! وأنها تُؤثَر علىٰ دارٍ باقية ؟!

لا شك أن العلم الذي ينتج عن فكرة وتأملٍ وتدبر يفيض علىٰ صاحبه اعتقادًا ويقينًا أنه لا يغتر بهٰذه الدنيا إلا مغرور، وأنه لا يلتفت إليها التفات قلب إلا مخذول، وأن العاقل الذي وفقه الله جل وعلا فإنما يأخذ من دنياه لآخرته، وتكون في يده عونًا له علىٰ ما يستقبل في الدار الآخرة.

قال جل وعلا: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ و(أنما) للحصر، يعني حقيقة الحياة الدنيا لمن أرادها أنها لعب ولهو وزينة وتفاخر.

وسماها دنيا لأمرين:

الأول: أنها دنيا من الدنوّ، وهو أنها قريبة لملابستها للإنسان، والإنسان يعيش فيها، والأخرىٰ متأخرة، فصارت هٰذه قريبة وتلك بعيدة، أو هٰذه أولىٰ وتلك متأخرة.

والثاني: أنها دنيا من الدناءة، وذكر هٰذا طائفة من أهل العلم، فقال: إنها دنيا لدناءتها وحقارتها ووضاعتها، قد جاء في الترمذي وفي غيره: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا» هٰذا يدل علىٰ أنها ليست عند الله بشيء؛ كما جاء أيضًا في الحديث الآخر الصحيح: « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ لَمَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» ولكنها دار كما وصفها الله جل وعلا هنا لعب ولهو وزينة وتفاخر، واللعب هو ما يتسلىٰ به لتمضية الوقت، واللهو هو ما يلهو به الإنسان من لهوه مع أهله أو لهوه بما يجم نفسه مع فرسه أو مع أولاده أو نحو ذلك، أو لهوه مع من يلهو معه، وكما جاء في الأثر: «كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ».

وهٰذا يدل علىٰ أن اللهو في الجملة ليس بممدوح، بل هو مذموم، لهٰذا طائفة من الفقهاء يرون أن كل أمرٍ من اللهو فإنه إما مكروه وإما محرم، فلا يوصف شيء من اللهو بأنه محمود إلا هٰذه الثلاثة، أو ما

كان في معناها.

والزينة هي ما يضاف إلىٰ الشيء من خارجه، ويكون عرضًا يأتي ويذهب، يلابس ويمضي، فاللباس زينة، والمتاع زينة، ولهٰذا الحياة كلها صارت زينة؛ لأنها مثل اللباس يأتي ويخلع ويذهب، والزينة في القرآن علىٰ العموم هي خارجةٌ عن الذات، فالذات يقال لها: جميلة، وهٰذا جميل إذا كان في ذاته حسنًا، أما إذا كان الجمال مجلوبًا فإنه يقال: مزين زينة، زين فصار زينةً، لهٰذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[الكهف]، وقال جل وعلا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] يعني لباسكم.

لهٰذا بالمناسبة في قوله جل وعلا في سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[النور: ٣١] فإن الخلاف في الزينة هل هي الوجه نفسه واليدان وما هو داخل في جسد المرأة، أو أن الزينة هنا مجلوبة وهي الثياب والكحل وما قد يظهر من الزينة المجلوبة في المرأة ؟ فإن من أوجه الترجيح أنها اللباس والثياب وما أشبهه أن الزينة في القرآن كله ليست في الذات وإنما هي مجلوبة للذات، مجلوبة للعين... والآيات التىٰ سمعتم كلها تدل علىٰ هٰذا، كذلك جعل الله جل وعلا النجوم زينة للسماء: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات]، فالكواكب غير السماء، فهي مجلوبة للتزيين، وهكذا اللباس، وهكذا ما علىٰ الأرض من شجر وأنهار ونحو ذلك، فهٰذه زينة؛ ليألف الإنسان ويستلذ بما في الأرض.

المقصود أن الحياة الدنيا نفسها في هٰذه الآية سماها الله جل وعلا زينة، مما يدل علىٰ أن الحياة كلها زينة، مما يدل علىٰ أنها عرض مجلوب، هو أحق شيء أن يذهب مثلما يذهب اللباس ومثلما يذهب أي شيء زُين به شيء آخر، فهي بالنسبة للإنسان زينة له، لكنها ستذهب، فالحياة لا شك أنها زينة، لكنها زينة ذاهبة؛ لأن الزينة ليست علىٰ الاستقرار، وإنما هي علىٰ الذهاب.

قال جل وعلا بعدها: ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ التفاخر هو المغالبة؛ إما بالمال أو بالجاه أو بالولد، أو بما عند الإنسان من المفاخر ومن النسب ونحو ذلك، يعني الحياة فيها مغالبة وفيها فخر، فهٰذا يرتفع علىٰ الآخر بكذا، وهٰذا يرتفع عليك بكذا.

والمفاخرة مفاعلة تكون من الطرفين، يعني كل واحدٍ يطلب فخره بشيء، والحياة فيها أشياء كثيرة يطلب الناس الفخر بها، والتفاخر في الجملة مذموم إلا بالإيمان والتقوىٰ والصلاح، ومن أنعم الله جل

وعلا عليه بشيء فإنه لا يدل ذلك علىٰ أنه يفاخر به ويغالب غيره به، فإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قد كان هَدْي السلف رضي الله عنهم أنهم كانوا إذا أُوتوا شيئًا من الدنيا فإنهم يخشون علىٰ أنفسهم ولا يفاخرون به، وإنما يطلبون أن يكون في مرضاة الله جل جلاله.

والتكاثر في الأموال هٰذا من طبيعة الإنسان، فحُبب إليه المال، وقلَّ مَن يتخلص من حب المال، قال جل وعلا: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران]، وقال جل جلاله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾[التكاثر] التكاثر في المال، التكاثر في الولد، التكاثر في أنواع ما يتكاثر فيه.

والأموال هنا جمع مال، وهو كل ما يتمول، فالنقدان الذهب والفضة أو العملات النقدية والأوراق إلىٰ آخره هٰذه كلها مال؛ لأنها تتمول، كذلك العقار مال لأنه يتمول، كذلك المزارع والزروع والثمار مال، كذلك بهيمة الأنعام مال، كذلك التجارات من حيث هي مال، فالمال اسم لما يتمول، هٰذا هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة؛ لأن المال يشمل كل ما يتموله الإنسان، يعني يعده للمستقبل لقيمة فيه.

وهٰذا قد يدخل فيه صور جديدة لم تكن في السابق، لهٰذا الفقهاء والمجتهدون في هٰذا العصر أخذوا من هٰذا الأصل أن بعض الصور الحادثة في الفقه تعالج بهٰذا الأصل، مثل العلامة التجارية مثلًا وبيعها والاختصاص التجاري ونحو ذلك، فهٰذا الاسم التجاري المعين أو الذي صار له شهرة هٰذا في حد ذاته يتمول؛ لأن له قيمة، وإن كان شيئًا عرضيًّا أو اسمًا، فمن أهل العلم من منعه قال: لأن هٰذا ليس بشيء علىٰ الحقيقة، وليس له شيء عيني، والصحيح هو أن هٰذا من الصور العصرية التي تتمول، فلها قيمة مالية ويدفع فيها ملايين الريالات ويتمولها الإنسان، فإذا كان عنده شركة لها اسم مشهور فإن هٰذا جزء من ماليتها وقوتها، فلذلك لما كانت العلامة التجارية تتمول فتدخل في البيع؛ لأن البيع مبادلة مال بمال، وهٰذا ليس بمحرم... إلىٰ آخره في بحث فقهي ليس هٰذا بمحله.

المقصود أن قوله: ﴿ وَتَكَاثُرٌۢ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ المقصود منه التكاثر في النَّعَم؛ الغنم أو البقر أو الإبل، أو التكاثر في الذهب والفضة، والتكاثر في العقار أو في الضيعات... ونحو ذلك، ولكن في العصر الحاضر ترىٰ أن التكاثر صار في أشياء أخرىٰ جديدة، وهٰذا داخل في هٰذا العموم.

ثم ضرب الله جل وعلا المثل الذي يدل علىٰ أن الدنيا ليست بشيء، وذلك بمثلٍ واضح ظاهر، قال

جل وعلا: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾، قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ قال قبله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فالكاف هنا اسم وليست بحرف، يعني أن تقديرها: مثلها مثل غيثٍ، والكاف تأتي بمعنىٰ (مثل)؛ كما في قوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] قوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ يعني هي مثل الحجارة، ودل علىٰ أنها بمعنىٰ (مثل) أنه عطف عليها ﴿أَشَدُّ﴾ قال: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ويدل عليها أيضًا قول كُثَيِّر في بعض شعره:

لو كان في قلبي كقَدْرِ قُلامةٍ حُبًّا وصلتُكِ أو أتتكِ رَسائلي

الكاف هنا بمعنىٰ (مثل) وتكون هي اسم (كان) مؤخرًا.

المقصود من ذلك أن الظاهر قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ بمعنىٰ: مثلها مثل غيثٍ أعجب الكفار نباته.

وهٰذا المثل مضروب في القرآن في عدة سور في أن الدنيا هٰذا مَثَلها: في البداية قوة واهتزاز ونضرة وخضرة وثمر وجمال، ثم بعد ذلك يبدأ الاصفرار ثم الموت فيكون هشيمًا تذروه الرياح.

قال جل وعلا بعدها: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ في قوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الظاهر أن الواو هنا استئنافية، وأن الأنسب الوقف علىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾، وفي كثير من المصاحف وكتب الوقف والابتداء يجعلون الوصل هنا أولىٰ؛ يجعلون عليها حرف (صِلِي) وهٰذا لأجل ترتُّب الجمل، والظاهر هنا أن قوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ غير مرتب علىٰ ما قبله، فهو من قبيل التَّهديد والترغيب، قال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ يعني في الآخرة عذاب ومغفرة، فمن أدرك الحقائق علم أن الدنيا زائلة ومتاع الغرور، والآخرة هي التي فيها العذاب الحقيقي التام الدائم لأهل الكفر، وهي التي فيها المغفرة من الله والرضوان.

قال جل وعلا: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الآخرة معروفة، سميت آخرة لأنها هي الحياة الآخرة مقابلة بالحياة الأولىٰ وهي الدنيا. والعذاب اسمٌ لكل ما يؤلم، وأصله مأخوذ من العذب وهو الحبس، ولذلك سُمي الماءُ الخالي من الشوائب والتراب ونحوهما عذبًا؛ لصفائه؛ لأنه يؤخذ ويُحبَس في إناء كبير حتىٰ يصفو مما يعلق به عادةً، وهنا سُمي ما يؤلم عذابًا كما قال الراغب وقاله غيره أيضًا؛ لأنه حبس عن النفس ما يؤنسها وتلتذُّ وتنعم به، وأفاض عليها أضداد ذلك ممّا يشقيها ويؤلمها ويؤذيها.

ووصف العذاب هنا بأنه شديد، يعني أن تلك الإفاضة من المؤلمات والمؤذيات والنيل أنها شديدة؛

لأن العذاب درجات.

قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ يعني لأهل الجنة، والمغفرة -كما ذكرت لك- بمعنىٰ الستر في الذنوب والخطايا، والستر يكون بشيئين:

الأول: ستر بعدم المؤاخذة بها.

والثاني: سترٌ بعدم ظهور آثارها؛ لأن الذنوب والمعاصي لها آثار لا بد أن تقع؛ لأن العاصي عصىٰ ربه، عصىٰ المالك، عصىٰ سيد هٰذا الكون، عصىٰ الذي هو مدبّر هٰذا الكون والذي يملكه، فالأصل أنه ما دام هو الملك جل جلاله، وهو الذي يملك هٰذا الملكوت، فأمره هو النافذ، ولا تجوز مخالفته في صغيرٍ ولا في كبير؛ لأنه هو المالك المتصرّف، والعبد لا يخالف سيده في شيء، وإلا يكون معرّضًا للعقوبة، فإذا وقع الذنب فإن العقوبة لا بد أن تقع إلا أن يمحو الله جل وعلا أثرها.

وقد أجاد العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الداء والدواء» أو «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي في بيان آثار الذنوب والمعاصي» في بيان الآثار الكونية والآثار الذاتية في ذات الإنسان، والشرعية والكونية في حياة الناس بأجمعهم، فالمغفرة هي سترُ الذنب بمحوه، وبعدم المؤاخذة أو عدم ظهور أثره وعقوبته.

قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ وقوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ يشعر بالمنة والفضل وأن المغفرة لا تكون إلا من الواحد الأحد جل جلاله.

قال: ﴿وَرِضْوَانٌ﴾، والرضوان معروف، وهو أنه يرضىٰ عليهم فلا يسخط بعدها أبدًا، ولهٰذا جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». هٰذا هو الرضوان العظيم من الله جل وعلا: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

قال سبحانه بعدها: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ هٰذه هي حقيقة الحياة أنها متاع زائل، لكن لِمَن يغتر، أما العاقل المؤمن البسيط فإنه لا يغتر بها، وإنما يأخذ منها لآخرته، ولذلك نظر طائفة من أهل العلم في الزهد فقالوا: هل المال وما يعطاه الإنسان ينافي معرفة حقيقة الحياة والزهد فيها ؟ فمن أهل

العلم سواء من السلف أو من أرباب السلوك أو من شراح الأحاديث في تعريف الزهد من قال: إن الزهد هو التقلل من الدنيا إلا بقدر الحاجة الملحة وبقدر الضرورة، والزهد هو ترك الدنيا إلا بما يحتاجه الإنسان لإقامة حياته.

وهٰذا تعريف فيه قصور في فهم الزهد الشرعي وحال الصحابة رضي الله عنهم، ففيهم الغنىٰ العظيم، وفيهم الغنىٰ المتوسط، وفيهم من هو دون ذلك، وفيهم الفقراء والمساكين كما هو معلوم، وفيهم من ترك الدنيا رغبة عنها أصلًا.

ولهٰذا من أحسن ما وقفت عليه من تعاريف أهل العلم في الزهد كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث قال: إن الزهد المشروع هو ترك ما لا ينفع في الآخرة. وهٰذا يوافق الأدلة ويوافق حال السلف في أن ما لا ينفعك في الآخرة فإن الزهد المطلوب هو أن تتركه، الزهد المشروع أن تترك ما لا ينفعك في الآخرة؛ فينفع في الآخرة أحيانًا المال إذا كان سيؤتاه العبد الصالح ويقوي به نفسه، ويعد به العدة، ويتصدق به، ويواسي به، وأشباه ذلك، وينفع في الآخرة الجاه أيضًا لمن استعان به علىٰ طاعة الله جل وعلا، وأعان به الملهوف والضعيف وقام بحقوقه، وينفع في الآخرة أيضًا النكاح والزواج إذا كان يراد منه أمر دينيّ مشروع وليس مجرد التلذذ ونحو ذلك.

فإذن الزهد من حيث هو ينبع من معرفة حقيقة الحياة، وأن الحياة الدنيا إنما هي متاع الغرور كما قال الله جل وعلا، فمن أدرك هٰذه الحقيقة زهد فيها ولم تكن الدنيا قط في قلبه، وإنما تكون في يده، فإذا أعطاه الله جل وعلا شيئًا منها يصرفه فيما يحبه الله ويرضىٰ، ولا تكون في قلبه قط؛ لأنها إذا كانت في القلب فإن الآخرة هي ضرة الدنيا، ولا يجتمع في القلب تمام محبة الآخرة وتمام محبة الدنيا، بل هٰذه تنازع هٰذه ولا بد.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن تبصر واعتبر، وتذكر وتفكر، وأن يجعل قلوبنا معتبرة؛ فإن لله جل وعلا في خلقه عبرًا، وللقلوب في تأملها فيما حولها ذكرًا وخبرًا وأثرًا، أسأل الله جل وعلا ألا يكلنا إلىٰ أنفسنا وأن ينير بصائرنا، إنه سبحانه جوَاد كريم.

***

الدرس العاشر

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ قَدَرِهِ السَّابِقِ فِي خَلْقِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْرَأَ الْبَرِيَّةَ فَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أَيْ: فِي الْآفَاقِ وَفِي نُفُوسِكُمْ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ الْخَلِيقَةَ وَنَبْرَأَ النَّسَمَةَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ عَائِدٌ عَلَىٰ النُّفُوسِ. وَقِيلَ: عَائِدٌ عَلَىٰ الْمُصِيبَةِ. وَالْأَحْسَنُ عَوْدُهُ عَلَىٰ الْخَلِيقَةِ وَالْبَرِيَّةِ؛ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:

حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ الْحَسَنِ، فَقَالَ رَجُلٌ: سَلْهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! وَمَنْ يَشُكُّ فِي هٰذا؟ كُلُّ مُصِيبَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَفِي كِتَابِ اللهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْرَأَ النَّسَمَةَ .

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قَالَ: هِيَ السُّنُونَ. يَعْنِي: الجَدْب، ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ يَقُولُ: الْأَوْجَاعُ وَالْأَمْرَاض. قَالَ: وَبَلَغَنَا أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُصِيبُهُ خَدْشُ عُودٍ وَلَا نَكْبَةُ قَدَمٍ، وَلَا خَلَجَانُ عَرَقٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ.

وَهٰذه الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَىٰ القَدَرية نُفاة الْعِلْمِ السَّابِقِ -قَبَّحَهُمُ اللهُ- وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا حَيْوَةُ وَابْنُ لَهِيعة قَالَا حَدَّثَنَا أَبُو هَانِئٍ الْخَوْلَانِيُّ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلي يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمرو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَدَّر الله المقادير قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ وَهْبٍ وَحَيْوَةَ بْنِ شُرَيْحٍ وَنَافِعِ بْنِ يَزِيدَ، وَثَلَاثَتُهُمْ عَنْ أَبِي هَانِئٍ، بِهِ. وَزَادَ بْنُ وَهب: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾﴾ أَيْ: أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَىٰ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا وَكِتَابَتَهُ لَهَا طِبْقَ مَا يُوجَدُ فِي حِينِهَا سَهْلٌ عَلَىٰ اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كيف كان يكون.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما وعملا وفقها في الدين، وعلما بالتأويل إنك أرحم

الراحمين، وأجود الأجودين، ربنا واشرح لنا صدورنا ويسر لنا أمرنا وقونا في أمرك ونهيك؛ إنك علىٰ كل شيء قدير.

أما بعد؛ فيقول الله جل وعلا في هٰذه السورة العظيمة، سورة الحديد: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

كما سمعت من كلام العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وما نقل علىٰ تفسير هٰذه الآية أن هٰذه الآية أصلٌ في الاحتجاج بقدر الله جل وعلا السابق بما يشمل مرتبتي العلم والكتابة؛ لأن الكتابة كانت بعد علم الله جل جلاله، فأمر القلم أن يجري فجرىٰ بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، فهي حجة في مرتبة الكتابة، وأن الله كتب ما علم مما يحصل في الأرض من مصائب ومن خير، علم ذلك فأمر بكتابته في كتاب هو اللوح المحفوظ، محفوظ من الزيادة والنقصان، محفوظ من الاعتداء، محفوظ من التغيير والتبديل، فما فيه لا بد أن تقع الأشياء طبقه، وعلىٰ وفق ما كتب فيه؛ لأن الله جل وعلا علم ذلك فكتبه، وكل شيء إنما يجري علىٰ ما قد خط في الكتاب، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف. فهٰذا الأصل مقرر معلوم لديكم فيما درستم في مسائل الاعتقاد.

قال جل وعلا: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ (ما) هنا مع (إلا) تفيد الحصر، يعني أنه لا يخرج شيء من هٰذا الذي أثبته الله جل وعلا، يعني لا يمكن أن تحدث مصيبة ليست في كتاب سابق، لا يمكن أن يحدث شيء مما يكون في النفس أو في الأرض إلا وقد سبق أن خُط في الكتاب بعد علم الله جل وعلا له، حتىٰ خلجان العرق وحتىٰ طرف العين، فكل شيء لا بد أن يكون سبق بكتاب كما قال جل وعلا: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام:٥٩] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال جل وعلا هنا: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ والمصيبة هي ما يكون غير موافقٍ لملاذ النفس، خلاف النعمة؛ فإنها تكون مما تَنعم به النفس والبدن، والمصيبة بعكس ذلك، فهي ما لا يلتذ به البدن أو ما يؤذي البدن والنفس، أو هما جميعًا.

وهٰذه المصائب التي تقع علىٰ أنواع؛ منها المصائب الدنيوية، وهي أهون، ومنها المصائب الدينية، وهي أعظم، وسواء منها المصائب الدينية أو الدنيوية فإنها قد سبقت في كتاب كما هو اعتقاد أهل السنة والجماعة.

والقدرية منهم نفاة العلم السابق ونفاة الكتاب الذين يقولون: إن الأمور تجري بشيء مستأنف جديد لم يسبق به قدر ولم يسبق به علم ولا كتاب، وهؤلاء كانوا في الزمن الأول، ثم نادىٰ عليهم السلف والعلماء من كل جهة فخمدت بدعتهم وكفرهم.

ومنهم القدرية الذين ينفون بعض ما يتصل بالقدر؛ كنفيهم أن تكون المصائب الدينية والدنيوية من خلق الله وادعائهم أنها من فعل العبد، مثل وقوع المحرمات ووقوع القتل في الأرض، ووقوع الاعتداءات علىٰ العرض أو النفس أو المال، أو مثل زنىٰ الزاني وسرقة السارق، وارتشاء المرتشي، وتخمر من يشرب الخمر... وهكذا، فهٰذه الأشياء عندهم ليست بخلق الله جل وعلا، وإنما هي من فعل العبد، لا تُنسَب إلىٰ الله جل وعلا، ولم يلزم الله جل وعلا بحسب رأيهم العباد بذلك، ولا جرىٰ بها إذنه جل وعلا.

قوله: ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قال ابن كثير: أي في الآفاق. وفُسرت المصيبة في الأرض بأنها الجدب، وهٰذا من تفسير العام ببعض أفراده، فلا يحد بذلك وإنما يطلق ويجعل عامًّا، ويكون المراد بالمصائب كل ما يحدث في الأرض للناس من مصيبة في دنياهم بالجدب أو في نقص الأموال أو الأنفس أو الثمرات، أو في دينهم بما يحصل من ذنوب واعتداء وضعف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وضعفٍ للسنة وارتفاع للبدعة، ونحو ذلك مما يكون من المصائب الدينية.

قوله: ﴿ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني ما يصيب العبد بأنواع المصائب التي ذكرتها.

قال: ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ والكتاب المقصود به هنا اللوح المحفوظ، وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو الذي رواه مسلم وغيره قال عليه الصلاة والسلام: «قَدَّرَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائقِ قَبلَ أنْ يَخْلُقَ السَّمٰوات والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سَنَةٍ، وكانَ عَرْشُهُ علىٰ الماءِ».

وقدر بمعنىٰ: كتب، قدر الله مقادير الخلائق يعني: كتبها، وهو دليل لما في هٰذه الآية من الكتاب السابق.

وقوله: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ فيه إثبات لمرتبة الخلق والبرء، وبرء الشيء هو إنفاذه بعد تقديره، فإذا قدر الشيء فإنه إذا عمل قيل: برأه الله جل وعلا، وأما الخلق من حيث هو الخلق فإنه يُطلَب ويراد به في أكثر المواضع التصوير وما يكون فيه صورة، ما يكون فيه تشكيل وشبه ذلك، أما البارئ فهو أعم، فكل شيءٍ وُجد فإنه قد بُرئ، ولهٰذا في قول الله جل وعلا في سورة المؤمنون لما ذكر تدرج خلق الإنسان في بطن

أمه قال في آخر الآية: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ معنىٰ أحسن الخالقين يعني أحسن المقدرين أو أحسن المصورين؛ لأن الخلق يطلق ويراد به التقدير، ويطلق ويراد به التصوير في غالب الاستعمال، لهٰذا في قوله هنا: ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ ﴾ هٰذا يعم جميع ما خلقه الله جل وعلا مما يكون علىٰ هيئة صورة أو علىٰ غير هيئة صورة، يعني مما يحدث من أقدار الله جل وعلا العامة.

﴿ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ ﴾ يعني أن تنفذ، فهي موجودة في كتاب ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ فهو سبحانه لكمال قدرته ولكمال علمه ولكمال إحاطته يسيرٌ عليه ﷻ أن يكتب هٰذه قبل أن تقع، وأن يعلمها؛ لأنه الكامل في صفاته جل جلاله.

في قوله: ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ ﴾، ذكر ثلاثة أقوال فيها؛ برء النسمة، يعني نبرأ هٰذه النسمة، أو نبرأ المصيبة، يعني أن نجعلها نافذة، أو أن نبرأ -كما رجح ابن كثير- الخليقة، يعني أن توجد الخليقة بعامتها.

والظاهر كما مر أن المقصود: من قبل أن نبرأ المصيبة في نفسها؛ لأن السياق يدل علىٰ ذلك، فالمعنىٰ: من قبل أن تنفذ هٰذه المصيبة وأن يقضىٰ علىٰ العبد هٰذه المصيبة.

***

وَقَوْلُهُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أَيْ: أَعْلَمْنَاكُمْ بِتَقَدُّمِ عِلْمِنَا وَسَبْقِ كِتَابَتِنَا لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَتَقْدِيرِنَا الْكَائِنَاتِ قَبْلَ وُجُودِهَا، لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكُمْ، وَمَا أَخْطَأَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكُمْ، فَلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ، فَإِنَّهُ لَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ لَكَانَ ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أَيْ: جَاءَكُمْ، وَيُقْرَأُ: «آتاكُم» أَيْ: أَعْطَاكُمْ. وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمَانِ، أَيْ: لَا تَفْخَرُوا عَلَىٰ النَّاسِ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَعْيِكُمْ وَلَا كَدِّكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَرِزْقِهِ لَكُمْ، فَلَا تَتَّخِذُوا نِعَمَ اللهِ أَشَرًا وَبَطَرًا، تَفْخَرُونَ بِهَا عَلَىٰ النَّاسِ؛ وَلِهٰذا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ أَيْ: مُخْتَالٍ فِي نَفْسِهِ مُتَكَبِّرٍ فَخُورٍ، أَيْ: عَلَىٰ غَيْرِهِ.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَفْرَحُ وَيَحْزَنُ، وَلَكِنِ اجْعَلُوا الفَرَحَ شُكْرًا وَالْحُزْنَ صَبْرًا.

الفرح في قوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ المقصود به فرح البطر، فرح بغير الحق، وأما الفرح بالحق فهٰذا مأذونٌ به شرعًا، أو مطلوب شرعًا.

والفرح بحق نوعان:

النوع الأول: فرح بالنعم الدينية؛ كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ هٰذا أمر ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]؛ فإنه مطلوب شرعًا أن يكون الفرح بفضل الله وبرحمته الذي هو القرآن والدين وما أنزل الله جل وعلا، فهو أعظم ما يُفرح به في هٰذه الحياة، فهٰذا كله فرح بحق وفرح مطلوب؛ فرح برسالة محمد ﷺ، فرح بانتصار أهل الإسلام، فرح بعلو الدين، فرح بظهور الحق ونحو ذلك مما هو لازم للفرح بالقرآن ولظهور القرآن وأهل القرآن.

النوع الثاني: الفرح بالنعم الدنيوية التي تحصل للعباد، والنعم الدنيوية التي تحصل للعباد إذا فرح بها فرحًا طبيعيًّا بمعنىٰ أنه سُر بها، وهٰذا السرور لم يصرفه عن شكرها؛ بل استعملها في مراد الله، ولم يجعله بطِرًا ولا متكبرًا ولا متجبرًا بسبب النعم؛ بل فرح الفرح الطبيعي الذي لم يحدث محرمًا؛ فإن هٰذا مأذون به.

فهٰذان قسمان للفرح المطلوب أو المأذون به شرعًا.

والقسم الثاني من نوعي الفرح هو الفرح المذموم، وهو فرح الكُفر أو فرح الكِبر، أو فرح البطر، وقد

ذكر الله جل وعلا عن أهل النار أنهم كانوا يفرحون في الأرض بغير الحق؛ كما في سورة غافر، قال جل وعلا: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾، فهٰذا يدل علىٰ أن فرحهم ومرحهم كان بطرًا وكان كفرًا وكان كبرًا ولم يكن عن تواضع لله جل وعلا، ولهٰذا في هٰذه الآية قال جل وعلا: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾، فإذا تيقن العبد القدر السابق بأن الله جل وعلا هو الذي قدر، وهو الذي قضىٰ، وهو الذي أنفذ ما قضىٰ؛ فإن هٰذا يجعل المرء لا يأسىٰ ويحزن علىٰ ما فاته؛ لأنه يعلم أن المتصرف في الأمر هو الذي قدر، ولا يفرح كثيرًا الفرح غير الشرعي بما آتاه الله جل وعلا فيكون متكبرًا بطرًا بنعم الله، فهٰذا وهٰذا مذموم، والحق بينهما، فإنه لا يحزن؛ بل يفرح الفرح المطلوب أو المأذون به وهو فرح الشكر، فرح بفضل الله ونعمة دينه.

قال جل وعلا: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ لأن الفرح بغير الحق ينتج عنه الاختيال والفخر والتعالي ونحو ذلك من الصفات المذمومة.

***

ثُمَّ قَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ أَيْ: يَفْعَلُونَ الْمُنْكَرَ وَيَحُضُّونَ النَّاسَ عَلَيْهِ، ﴿وَمَن يَتَوَلَ﴾ أَيْ: عَنْ أَمْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾ كَمَا قَالَ مُوسَىٰ عليه السلام: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ هل هي مستأنفة أو هي تفسير للمختال والفخور ؟ الأحسن أن تكون تفسيرًا ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ فالمختال والفخور هو الذي يبخل ويأمر الناس بالبخل، يعني في نواحي الخير وفي إعطاء أهل الاستحقاق بإعطاء ذوي الحاجات وإغاثة ذوي اللهفات، فيبخل ويأمر الناس بالبخل ويحثهم علىٰ ألا يعطوا ولا ينفقوا وأشباه ذلك من صفات المختالين الفخورين.

***

الدرس الحادي عشر

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أَيْ: بِالْمُعْجِزَاتِ، وَالْحُجَجِ الْبَاهِرَاتِ، وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وَهُوَ: النَّقْلُ الْمُصَدِّقُ ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ وَهُوَ: الْعَدْلُ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمَا. وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُخَالِفَةُ لِلْآرَاءِ السَّقِيمَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ [هُود: ١٧]، وَقَالَ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧﴾ [الرَّحْمَن]؛ وَلِهَٰذا قَالَ فِي هَٰذه الْآيَةِ: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أَيْ: بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَهُوَ: اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَطَاعَتُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا بِهِ، فَإِنَّ الذي جاؤوا بِهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الْأَنْعَام: ١١٥] أَيْ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي. ولهٰذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غُرَفَ الْجَنَّاتِ، وَالْمَنَازِلَ الْعَالِيَاتِ، وَالسُّرُرَ الْمَصْفُوفَاتِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الْأَعْرَاف: ٤٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ أَيْ: وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ رَادِعًا لِمَنْ أَبَىٰ الْحَقَّ وَعَانَدَهُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ؛ وَلِهَٰذا أَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً تُوحَىٰ إِلَيْهِ السُّوَرُ الْمَكِّيَّةُ، وَكُلُّهَا جِدَالٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَبَيَانٌ وَإِيضَاحٌ لِلتَّوْحِيدِ، وَتِبْيَانٌ وَدَلَائِلُ، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ شَرَعَ اللهُ الْهِجْرَةَ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِتَالِ بِالسُّيُوفِ، وَضَرْبِ الرِّقَابِ وَالْهَامِ لِمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ وَكَذَّبَ بِهِ وَعَانَدَهُ.

وَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ ثَوْبَانَ، عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي الْمُنِيبِ الْجُرَشِيِّ الشَّامِيِّ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ حَتَّىٰ يُعبَد اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وجُعِل رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجَعَلَ الذِّلَّةُ والصِّغار عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشبَّه بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

وَلِهَٰذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ يَعْنِي: السِّلَاحَ كَالسُّيُوفِ، وَالْحِرَابِ، وَالسِّنَانِ، وَالنِّصَالَ، وَالدُّرُوعِ، وَنَحْوِهَا. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أَيْ: فِي مَعَايِشِهِمْ كَالسِّكَّةِ وَالْفَأْسِ وَالْقَدُومِ، وَالْمِنْشَارِ، وَالْإِزْمِيلِ، وَالْمِجْرَفَةِ، وَالْآلَاتِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا فِي الْحِرَاثَةِ وَالْحِيَاكَةِ وَالطَّبْخِ وَالْخَبْزِ وَمَا لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ بِدُونِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قَالَ عِلْباء بْنُ أَحْمَدَ، عَنْ عِكْرِمة، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ نَزَلَتْ مَعَ آدَمَ: السَّنْدَانُ والكلْبَتان والميقعَة -يَعْنِي الْمِطْرَقَةَ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أَيْ: مَنْ نِيَّتُهُ فِي حَمْلِ السِّلَاحِ نُصْرَةُ اللهِ وَرُسُلِهِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ أَيْ: هُوَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ، يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ مِنْهُ إِلَى النَّاسِ، وَإِنَّمَا شَرَعَ الْجِهَادَ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قال جل وعلا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قوله هنا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ يتكرر في القرآن كثيرًا مجيء (لقد) و(قد)، و(قد) بدون اللام إذا دخلت علىٰ الفعل المضارع فإنها للاحتمال، قد يكون للتقعيد أو نحو ذلك، وإذا دخلت علىٰ الفعل الماضي فإنها للتأكيد، فإذا زاد عليها اللام فإن هٰذه اللام تكون واقعة في جواب القسم المقدر، يعني أن تقدير الكلام: (والله لقد أرسلنا رسلنا)، فهنا صار التحقيق والتأكيد بـ(لقد) مستفادًا من جهتين:

الجهة الأولىٰ: ما في (قد) من التحقيق.

والجهة الثانية: ما في اللام من إشعار بالقسم وتأكيد الخبر.

في هٰذه الآية لما أقسم الله جل وعلا علىٰ ذلك وأكده وأثبت تحقيقه وتحققه؛ فإن هٰذا الشأن عظيم من جهة إنزال الهدىٰ والبينات والبراهين الدالة علىٰ صدق النبوة لكل رسول ولكل نبي، ومن جهة إنزال الكتب والشريعة التي هي ميزانٌ للحق وللباطل، ولو تُرك الناس وأهواءهم ما أدركوا الحق من الباطل، وربّما أدركوا بعض الحق وبعض الباطل وصارت فيهم الأهواء، ولهٰذا كانت أعظم منّة وأعظم رحمة من الله جل وعلا علىٰ عباده أنه لم يتركهم دون كُتبٍ وشرائع تبيّن لهم حق الله جل وعلا وتبين لهم ما يجب عليهم أن يتعاملوا به في حياتهم وأن يقوم الناس بالقسط؛ لأن الناس لو لم يكن ذلك لظلم بعضهم بعضًا، ولأخذ بعضهم بعضًا بأهوائهم وشهواتهم، وبيّن الله جل وعلا أن التدافع سنة من سننه جل وعلا، وجعل الحديد قوة يكون به قيام الحق والرد علىٰ الباطل، فلا بد للحق إذا أتىٰ والهدىٰ من معارض، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾[الفرقان]، هنا أثبت العداوة

للرسل من المجرمين، وبين أنه جل وعلا هو الكافي بالهداية، وهو الكافي المصلح، كفىٰ بربك هاديًا بما أرسل من رسولٍ وأنزل من كتاب وكفىٰ به نصيرًا؛ لأنه ينصر عباده بتهيئة أسباب النصر ومن يبث الرعب في قلوب الأعداء وبعلو أهل الإيمان عليهم، وكفىٰ به نصيرًا أيضًا بما يعطي من الأسباب، فهٰذه سنة الله في خلقه، فجعل جل وعلا الحديد منَّة منه علىٰ عباده؛ لأن فيه رفعة هٰذا الحق وقيام الناس بالقسط، وفيه منافع للناس كثيرة متنوعة، والآية كما سيأتي تشعر بأن الحديد ليس من الأرض؛ بل الله جل وعلا، أنزله من السماء علىٰ هٰذه الأرض.

ثم قال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ ﴾ وذلك الابتلاء الحقيقي، والحياة بمجملها هي ابتلاء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك:٢] إذا كان الله جل وعلا أعطىٰ الناس نعمًا فإنها للابتلاء ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنبياء]، فقال سبحانه هنا في إنزال الحديد: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ ﴾ يعني إذا حق الجهاد وأمر الله جل وعلا به أو قام المقتضي له فهنا يظهر الصادق ويظهر غير الصادق.

في قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ نشير إلىٰ أن إرسال الرسول هو الإيحاء إليه بأن يبلغ قومًا هم علىٰ غير ما جاءت به الرسالة، وإرسال الرسل بالبينات يعني أن ما أُرسلوا به وهو الوحي هو في نفسه بين واضح؛ لأن البينة هي الدليل للمراد، وهو بين واضح في نفسه، والرسل يدعمها الله جل وعلا ويؤيدها بالبراهين والآيات، فبما أعطاها يكون البيان التام، لذلك تُسمىٰ آيات الأنبياء وبراهين الأنبياء بينات؛ لأنها بينة ظاهرة ودليل صادق علىٰ أن هٰذا الرسول ما جاء بشيء بنفسه، بل بإذن الله ﷻ.

لهٰذا نرىٰ أن من كذب الرسل أو لم يستسلم لهٰذه البراهين والدلائل والآيات فهو ردّ البينة، وإذا رد البينة فقد رد الحجة، لهٰذا سميت الحجة بينةً، وسمي الدليل حجة؛ لأنه لا بد أن يكون بينًا، فإذا كان غامضًا أو كان مشوّشًا فإنه ليس بحجة؛ لأنه ليس ببين، فإذا قامت الحجة علىٰ العباد بقيام البينات انقسم معها الناس مسلم وكافر، بعد ذلك يُشرع الجهاد كما قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ.

فإذن البينات والآيات والبراهين أسماء تدل علىٰ أن ما أُرسل به هٰذا الرسول بين في نفسه واضح، دليل لا لبس فيه ولا غموض، وأنه آية له لا شك فيها ولا غموض، وأنه برهان له ساطع كبرهان شعاع الشمس في وضوحه، فيكون حينئذ من رده رد البينة والبرهان الواضح من الدلائل.

هنا الباء في قوله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فيها وجهان:

الأول: أن يكون الموحىٰ هو البينة، والمرسل محملًا بهٰذه البينة، والبينة بمعنىٰ الكتب والآيات والبراهين.

والثاني: تكون الباء للمصاحبة، يعني أنهم أرسلوا مصحوبين ببيان واضح لا لبس فيه، فيكون الكتاب الذي أنزل عليهم موصوفًا بأنه بين واضح.

والقولان وجيهان، إلا أن الثاني قد يرجح بقوله بعدها: ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ليكون الكلام غير معاد وتكون البينات هنا وصفًا لما أتوا به. وفي القرآن يكون هٰذا تارة فتطلق (بالبينات) بالباء فيكون المعنىٰ: ما أعطوه هو البينات، يعني الكتاب هو البينة، الآية هي البينة، والقرآن هو البينة، والمعجزة هي البينة، وتارة تأتي ويكون المراد بها أن هٰذه الأشياء التي يعرفونها التي هي الكتب والآيات والبراهين موصوفة بأنها دلائل واضحة علىٰ الصدق.

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ (أنزلنا) فيها دليل علو الله جل وعلا، وأن الكتاب ليس بقول محمد ﷺ، وإنما هو منزل من عند الله، قال جل وعلا: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[الشعراء]، وهٰذا يدل علىٰ أن الروح الأمين الذي هو جبريل عليه السلام هو من حمله وليس من قال، والمنزَل عليه محمد ﷺ، فهو من نزل عليه وليس من قال، فإذن دلت الآية علىٰ أن القرآن من عند الله، منزَل، حمله ونزله جبريل عليه السلام وهو الرسول الملكي، والمنزل عليه هو قلب محمد ﷺ، وهو الرسول البشري عليه الصلاة والسلام.

وكذلك قوله في الآية بعدها: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ فيه دليل علىٰ علو الله جل وعلا علىٰ خلقه؛ علو الذات، ﷻ؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من علو.

قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ (معهم) يعني مصحوبين بالكتب ومصحوبين بالميزان، والكتب مشتملة علىٰ الميزان، فالميزان هو الكتاب، أو أن الرسول يعطىٰ كتابًا ليس فيه شريعة، ويعطىٰ ما يحكم به بين الناس، يعني من حيث ظاهر اللفظ، فدلت الآية علىٰ أن الرسل أعطوا ميزانًا وكتابًا، فهل الميزان هو الكتاب أو هو غير الكتاب ؟ الأكثر والمعروف أن كتب الرسل والأنبياء مشتملة علىٰ العقيدة والشريعة، والشريعة مختلفة والعقيدة واضحة، والشريعة هي التي يحكم بها بين الناس ويفصل بها بين الحق والباطل، ويبين فيها ما للخلق من أنواع الحقوق حتىٰ يمكن لكل واحد من الناس أن يعيش بدون

تعد علىٰ الآخر، حينئذٍ تكون الواو العاطفة هٰذه عاطفة للخاص علىٰ العام، يكون الميزان هو الكتاب لما اشتمل عليه من شريعة، أو هو وصفٌ آخر له علىٰ حد قوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾ [الحجر].

فالكتاب هو القرآن، لكن من جهةٍ وصف بأنه كتاب لأنه يكتب، ومن جهةٍ وصف بأنه قرآن لأنه يقرأ، وهنا أفرد الميزان مع أن الكتاب مشتمل عليه، أو أن الكتاب هو الميزان، أفرده لأن الحِجَاج مع المشركين يكون بالدلائل، والبينات هي الميزان الذي يُبين به الحق من الباطل، وأيضًا لأن الناس يحتاجون يوم القيامة إلىٰ الفصل بينهم بهٰذا الميزان.

المقصود من ذلك أن العطف هٰذا فيه فائدة كبيرة في بيان الميزان؛ وهو ما توزن به الأمور الحسية والمعنوية لقيام العدل وقيام الحقوق؛ حقوق الله جل وعلا وحقوق العباد فيما بينهم، إن هٰذا من أعظم ما أرسلت به الرسل، فإذا أبطل هٰذا الميزان وأبطل تحكيم الكتاب من جهة تحكيم هٰذا الشرع فكأنه أبطل المقصود من الرسالة، فالرسالة والرسل والبيانات جعلها الله جل وعلا لبيان ما يجب علىٰ العباد من حقه سبحانه ووضوح ما له جل جلاله من الحقوق علىٰ عباده ولما يحكم به بين الناس، فهما قرينان.

إذن توحيد الله جل وعلا بأداء حقوقه ﷻ، والميزان الذي به يحكم بين الناس، وهو الشريعة، وكل رسول جاء من عند الله جل وعلا بشريعة تناسب أهل زمنه، تختلف الشرائع لأن المقصود من الشرائع غير المقصود من العقائد، غير المقصود من الديانات، الشرائع بمعنىٰ الأحكام والأوامر والنواهي تختلف؛ لأن المقصود منها إصلاح الناس، حتىٰ إن الحكماء والفلاسفة قالوا: إنما القوانين علىٰ حد كلامهم والتشريعات هي للإصلاح. فيرون أن الفيلسوف مرتفع عن هٰذا؛ لأنه قد صلح ظاهره وباطنه وأدىٰ الحقوق، فمن صلح فإنه ليس بحاجة إلىٰ ذلك. والله جل وعلا جعل هٰذا لتتم كلمته في بيان الأخبار والعقيدة فتُصدَّق، وفي الأوامر والنواهي فتتبع، قال جل وعلا: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، والشرعة هي الشريعة التي يحكم بها، والمنهاج هو الطريقة، لهٰذا قال بعض السلف في تفسير ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: يعني سنة وطريقًا، السنة التي تمضي ويحكم بها والطريق التي تسلك والمنهاج الذي ينهج.

قوله: ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ اللام هٰذه للتعليل، وما بعدها تعليل لما قبلها، والقسط يكون في المسائل

العملية، ويكون أيضًا في الخصومات والمغالبة مع المشركين قبل أن يشرع الجهاد، ليقوم القسط الذي هو العدل والحق في المسائل العلمية، لهٰذا كثر الحجاج وكثر إيراد كلام المشركين في القرآن والرد عليهم؛ وذلك في الله جل وعلا وفي توحيده وفي الآلهة، وفي الرسول ﷺ، وفي صدقه، وفي البعث بعد الموت، ونحو ذلك من الحقوق أو من الغيبيات، فهٰذا ليقوم العدل في الحقيقة، ليس هو العدل في الأمور الدنيوية بين الناس، وإنما العدل الذي أقام الله جل وعلا عليه السَّمٰوات والأرض، هو أن يعطىٰ كل ذي حق حقه، فأعظم العدل في الأرض وأعظم الإصلاح في الأرض أن يعطىٰ الله جل وعلا حقه، فما في الناس خير إذا كانوا قد أعطوا بعضهم بعضًا الحقوق ولكنهم ظلموا في حق الله جل وعلا، فيكونون حينئذٍ لم يقوموا بالعدل ولا بالقسط، لكن من سنة الله جل وعلا أنه إذا فرط العباد في حق الله فإن الله يمهلهم، بل ربما عاشوا قرونًا، لكن إذا فرطوا في حق العباد وتظالموا فيما بينهم فإن من سنته أن الحياة لا تمضي؛ لأن العباد يتشاحون في حقوقهم، فلا بد أن يقع الاعتداء.

قال ﷻ بعدها: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ الحديد فيما يذكر أهل الاختصاص بالمعادن أنه ليس من جنس المعادن الموجودة في الأرض؛ بل هو من جنس ما هو موجود في الكواكب والنجوم المختلفة، فالحديد كأنه حسب ما يقولون: غريب علىٰ تركيبة الأرض، فهو أُنزِلَ عليها وليس داخلًا في تركيبها الأصلي، وهٰذا الكلام يفهِم معنىٰ قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾، فالإنزال يقتضي أن يكون من علو، ويقتضي حينئذٍ أن يكون من خارج هٰذه الأرض، وطائفة من أهل العلم قالوا في: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾: إنه أُنزل من رؤوس الجبال حيث يوجد فيها، أُنزل من الجبال إلىٰ الناس في مدنهم، قالوا: هٰذا معنىٰ الإنزال، لكن هٰذا فيه نظر.

فإذن قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ فيه فائدتان:

الفائدة الأولىٰ: إثبات علو الله جل وعلا.

والثانية: أن الحديد ليس من الأرض، بل الله جل وعلا أنزله علىٰ هٰذه الأرض.

وهٰذه السورة سميت سورة الحديد من أجل ذكر الحديد فيها، وقال بعض أهل الكيمياء والاختصاصات في المعادن والفلزات وأشباه ذلك: إن المعدن مشتمل علىٰ عددين؛ العدد الذري والوزن الذري [الكتلة الذرية]، ومن العجيب في الحديد أن أحد هذين العددين يمثل رقم السورة، والعدد الثاني يمثل رقم الآية التي فيها ذكر الحديد، لكن بفرق عددٍ واحد بينهما، هٰذا العدد هو ناشئ

بحسب الاستقراء الذي ذكره بعض أهل الاختصاص عن عدم عدِّ البسملة باعتبارها آية مستقلة وجعل سورة الأنفال وبراءة سورة واحدة وليستا سورتين، وهٰذا مذهب كما هو معلوم لعدد من السلف في البسملة وفي جعل الأنفال وبراءة سورة واحدة.

المقصود من ذلك أن الله جل وعلا له في خلقه الدلائل العجيبة، والآيات الغريبة، والكون كله مرتبط بمخلوقات الله جل وعلا، فالعالم المتأمل في اختصاصه أو طالب العلم الشرعي المتأمل في الشرع يجد الشريعة والكون شيئًا واحدًا، لا يختلف هٰذا عن هٰذا، كما دلت عليه الآية، فالله جل وعلا جمع في تنبيه النظر في إقامة الحجة ما بين الشرعيات والكونيات، فقال في أول الكلام: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وذكر إنزال الكتاب والميزان وقيام الناس بالقسط، ثم ذكر بعض الأشياء الكونية لحكم وليمنَّ علىٰ عباده.

فهٰذا الارتباط ينبغي لطالب العلم وللمتأمل أن ينظر إليه، فمن انفك نظره ما بين الكونيات والشرعيات فقد حصل له نوعٌ من البعد عن الحق أو الضلال بحسب قدره، فالحق الذي كان مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم نظروا في شرع الله جل وعلا كما أنهم تفكروا في خلق الله جل وعلا، والجمع بين هٰذا وهٰذا هو الكمال، فيجمع ما بين الاستسلام للشريعة والفقه فيها، وما بين التفكر بمخلوقات الله جل وعلا، فمن أعطي علمًا بالشريعة وعلمًا بالكونيات فإن هٰذا يعطيه إيمانًا صادقًا؛ لأنه لا يمكن لبشر أن يأتي بكتاب يتفق في الوحي والتشريع مع ما عليه الكونيات.

لهٰذا نظروا في أشياء كثيرة من هٰذا القبيل، فنظروا مثلًا في الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة، والذهاب من مكة إلىٰ منىٰ إلىٰ عرفات إلىٰ مزدلفة ثم الرجوع، كل هٰذه حركة واحدة، الحركة من حيث الشكل واحدة، وهٰذه الحركة متفقة مع حركات وتصرفات الأفلاك، وهٰذا الارتباط ما بين الشرعيات والكونيات له بحث طويل ينتج لك أنه لا يمكن أن تكون هٰذه الشريعة وأن تكون هٰذه الأكوان إلا من عند الله جل وعلا وحده دون ما سواه، فهٰذا دليلٌ آخر من دلائل الإيمان.

إن كثيرين نظروا إلىٰ الأكوان ليثبتوا الربوبية ثم توقفوا، تأملوا ثم قالوا: هٰذه الأشياء الكونية تثبت أن الله هو الذي خلقها، ويقفون بعد ذلك، وهٰذا قصورٌ كبير؛ لأن إثبات الربوبية ليس هو المقصود، ولكن المقصود هو عبادة الله جل وعلا وحده دون ما سواه.

فحينئذٍ يكون طالب العلم خاصة في هٰذا الزمن الذي يكثر فيه الكلام عن الكونيات إذا جمع ما بين فهمه لطلب العلم وفهمه للأمور الكونية التي تُذكر بيقين وليس نظريات، التي تذكر بيقين وعليها براهين

وأدلة، فتفكر وتدبر في الكون، فإنه سيكون عنده من الإيمان والقوة ما هو محتاج إليه في مسيره إلىٰ الله جل وعلا.

لهٰذا عندما ننظر إلىٰ كتاب «مفتاح دار السعادة» مثلًا لابن القيم نجده دائرًا في هٰذا الفلك، في الجمع ما بين العلم الشرعي والسلوك والإرادة وما بين النظر في الكونيات.

قوله جل وعلا: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ يريد به جل وعلا أنه من أعظم أسباب القتال والدفع والجهاد في سبيل الله جل وعلا. والجهاد أول ما فرض فرضه الله جل وعلا جهادًا بالبيان والحجة، وهٰذا هو الأصل في الجهاد؛ الجهاد بالبيان والحجة، والجهاد بالسِّنان استثناء، ليس هو الأصل، هو شُرع ومأمور به وفُرض لحماية ورعاية الجهاد بالحجة والبيان؛ قال سبحانه: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] يعني بالقرآن.

***

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مُنْذُ بَعَثَ نُوحًا عليه السلام، لَمْ يُرْسِلْ بَعْدَهُ رَسُولًا وَلَا نَبِيًّا إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ، عليه السلام، خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، لَمْ يُنْزِلْ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا وَلَا أَرْسَلَ رَسُولًا وَلَا أَوْحَى إِلَى بَشَرٍ مِنْ بَعْدِهِ، إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ يَعْنِي حَتَّى كَانَ آخِرُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الَّذِي بَشَّرَ مِنْ بَعْدِهِ بِمُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾.

وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وَهُمُ الْحَوَارِيُّونَ ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أَيْ: رَأْفَةً وَهِيَ الْخَشْيَةُ ﴿وَرَحْمَةً﴾ بِالْخَلْقِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أَيِ: ابْتَدَعَتْهَا أُمَّةُ النَّصَارَى ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: مَا شَرَعْنَاهَا لَهُمْ، وَإِنَّمَا هُمُ الْتَزَمُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ رِضْوَانَ اللهِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَتَادَةُ. وَالْآخَرُ: مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ إِنَّمَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمُ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أَيْ: فَمَا قَامُوا بِمَا الْتَزَمُوهُ حَقَّ الْقِيَامِ. وَهَذَا ذَمٌّ لَهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا: فِي الِابْتِدَاعِ فِي دِينِ اللهِ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ اللهُ. وَالثَّانِي: فِي عَدَمِ قِيَامِهِمْ بِمَا الْتَزَمُوهُ مِمَّا زَعَمُوا أَنَّهُ قُرْبَةٌ يُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللهِ، عزوجل.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ أَبُو يَعْقُوبَ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا السِّنْدِيُّ بْنُ عَبْدَوَيْهِ حَدَّثَنَا بُكَيْرُ بْنُ مَعْرُوفٍ، عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، عن جده بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا ابْنَ مَسْعُودٍ». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؟ لَمْ يَنْجُ مِنْهَا إِلَّا ثَلَاثُ فِرَقٍ، قَامَتْ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالْجَبَابِرَةِ بَعْدَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام، فَدَعَتْ إِلَى دِينِ اللهِ وَدِينِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَقَاتَلَتِ الْجَبَابِرَةَ فَقُتِلَتْ فَصَبَرَتْ وَنَجَتْ، ثُمَّ قَامَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَكُنْ لَهَا قُوَّةٌ بِالْقِتَالِ، فَقَامَتْ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالْجَبَابِرَةِ فَدَعَوْا إِلَى دِينِ اللهِ وَدِينِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَقُتِّلَتْ وَقُطِّعَتْ بِالْمَنَاشِيرِ وَحُرِّقَتْ بِالنِّيرَانِ، فَصَبَرَتْ وَنَجَتْ.

ثُمَّ قَامَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يَكُنْ لَهَا قُوَّةٌ بِالْقِتَالِ وَلَمْ تُطِقِ الْقِيَامَ بِالْقِسْطِ، فَلَحِقَتْ بِالْجِبَالِ فَتَعَبَّدَتْ وَتَرَهَّبَتْ، وَهُمُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ، عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾.

وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِلَفْظٍ آخَرَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَىٰ فَقَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبَّرِ، حَدَّثَنَا الصَّعِق بْنُ حَزْن، حَدَّثَنَا عُقَيْلٌ الْجَعْدِيُّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيِّ، عَنْ سُوَيْد بْنِ غَفَلَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اخْتَلَفَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، نَجَا مِنْهُمْ ثَلَاثٌ وَهَلَكَ سَائِرُهُمْ... » وَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ، وَفِيهِ: «﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَصَدَّقُونِي ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وَهُمُ الَّذِينَ كَذَّبُونِي وَخَالَفُونِي».

وَلَا يَقْدَحُ فِي هٰذه الْمُتَابَعَةِ لِحَالِ دَاوُدَ بْنِ الْمُحَبَّرِ، فَإِنَّهُ أَحَدُ الْوَضَّاعِينَ لِلْحَدِيثِ، وَلَكِنْ قد أسنده أَبُو يَعْلَىٰ، وَسَنَدُهُ عَنْ شَيْبَانَ بْنِ فَرُّوخ، عَنِ الصَّعِق بْنِ حَزْن، بِهِ مِثْلُ ذَلِكَ فَقَوِيَ الْحَدِيثُ مِنْ هٰذا الْوَجْهِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ -وَاللَّفْظُ لَهُ-: أَخْبَرَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ حُرَيْث، حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ مُلُوكٌ بَعْدَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَّلَتِ التَّوْرَاةَ والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرؤون التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَقِيلَ لِمُلُوكِهِمْ: مَا نَجِدُ شَيْئًا أشد من شتم يشتمونا هؤلاء، إنهم يقرؤون: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الْمَائِدَةِ]، هٰذه الْآيَاتُ، مَعَ مَا يَعِيبُونَنَا بِهِ مِنْ أَعْمَالِنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فليقرؤوا كَمَا نَقْرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا. فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ أَوْ يَتْرُكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ؟ دَعُونَا: فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أُسْطُوَانَةً، ثُمَّ ارْفَعُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الْأَرْضِ وَنَهِيمُ وَنَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفَيَافِي، وَنَحْتَفِرُ الْآبَارَ وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ وَلَا نَمُرُّ بِكُمْ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَّا لَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ وَالْآخَرُونَ قَالُوا: نَتَعَبَّدُ كَمَا تَعَبَّدَ فُلَانٌ، وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فُلَانٌ، وَنَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فُلَانٌ، وَهُمْ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِمْ فَلَمَّا بُعث النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، انْحَطَّ مِنْهُمْ

رَجُلٌ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، وَجَاءَ سَائِحٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَصَاحِبُ الدَّيْرِ مِنْ دَيْرِهِ، فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، فَقَالَ اللهُ، عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أَجْرَيْنِ بِإِيمَانِهِمْ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَبِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَصْدِيقِهِمْ قَالَ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾: الْقُرْآنَ، وَاتِّبَاعَهُمُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الَّذِينَ يَتَشَبَّهُونَ بِكُمْ ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

هٰذا السِّيَاقُ فِيهِ غَرَابَةٌ، وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ عَلَىٰ غَيْرِ هٰذا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَىٰ الْمُوصِلِيُّ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عِيسَىٰ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الْعَمْيَاءِ: أَنَّ سَهْلَ بْنَ أَبِي أُمَامَةَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ دَخَلَ هُوَ وأبوه علىٰ أنس بن مَالِكٍ بِالْمَدِينَةِ زَمَانَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ أَمِيرٌ، وَهُوَ يُصَلِّي صَلَاةً خَفِيفَةً كَأَنَّهَا صَلَاةُ مُسَافِرٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: يَرْحَمُكَ اللهُ، أَرَأَيْتَ هٰذه الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، أَمْ شَيْءٌ تَنَفَّلْتَهُ؟ قَالَ: إِنَّهَا الْمَكْتُوبَةُ، وَإِنَّهَا صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَخْطَأْتُ إِلَّا شَيْئًا سَهَوْتُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كان يَقُولُ: «لَا تُشَدِّدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ». ثُمَّ غَدَوْا مِنَ الْغَدِ فَقَالُوا: نَرْكَبُ فَنَنْظُرُ وَنَعْتَبِرُ قَالَ: نَعَمْ فَرَكِبُوا جَمِيعًا، فَإِذَا هُمْ بِدِيَارٍ قَفْرٍ قَدْ بَادَ أَهْلُهَا وَانْقَرَضُوا وَفَنَوْا، خَاوِيَةٍ عَلَىٰ عُرُوشِهَا فَقَالُوا: تَعْرِفُ هٰذه الدِّيَارَ؟ قَالَ: مَا أَعْرَفَنِي بِهَا وَبِأَهْلِهَا. هَؤُلَاءِ أَهْلُ الدِّيَارِ، أَهْلَكَهُمُ الْبَغْيُ وَالْحَسَدُ، إِنَّ الْحَسَدَ يُطْفِئُ نُورَ الْحَسَنَاتِ، وَالْبَغْيُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ، وَالْعَيْنَ تَزْنِي وَالْكَفَّ وَالْقَدَمَ وَالْجَسَدَ وَاللِّسَانَ، وَالْفَرْجَ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يعمُر، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنْ زَيْدٍ العَمِّي، عَنْ أَبِي إِيَاسٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هٰذه الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ».

وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَىٰ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَسْمَاءَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ بِهِ وَلَفْظُهُ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هٰذه الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ».

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ -هُوَ ابْنُ مُحَمَّدٍ- حَدَّثَنَا ابْنُ عَيَّاشٍ -يَعْنِي إِسْمَاعِيلَ- عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ مَرْوَانَ الْكَلَاعِيِّ، وَعُقَيْلِ بْنِ مُدْرِكٍ السُّلَمِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: أَوْصِنِي فَقَالَ: سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ، أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ

شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رُوحُكَ فِي السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

الآية ظاهر كلام ابن كثير عليها، ونقف عند قوله: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾ هٰذه الجملة فيها دليلٌ علىٰ أن الترهب الذي مارسه أتباع عيسىٰ عليه السلام والانعزال في الصوامع وفي الغِيران والجبال ونحو ذلك، أن هٰذا شيء مبتدع في دين عيسىٰ عليه السلام، وأنهم ابتدعوا ذلك لأجل أن يكون ذلك أقرب إلىٰ الله جل وعلا بحسب زعمهم، والله تعالىٰ قال: ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فجعل الذنب لهؤلاء الذين تعبدوا وترهبوا بما لم يأذن به الله جل وعلا من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أنهم ابتدعوا، وكان حقًّا عليهم أن يتبعوا رسولهم عيسىٰ عليه السلام.

والجهة الثانية: أنهم كتبوا علىٰ أنفسهم، يعني ألزموا أنفسهم، بشيء لم يلزمهم الله جل وعلا به.

وكما هو معلوم أن النذر في الإسلام مكروه؛ لأنه إلزام للنفس بعبادة أو بشيء ليس لازمًا عليها، والعبد لا ينبغي له أن يلزم نفسه بطاعة ويعاهد الله جل وعلا عليها، ثم لا يدري بعد ذلك أيفعل أم لا يفعل، أيقدر أم لا يقدر، أيستطيع فتنشرح نفسه لذلك أم لا يستطع فيخالف.

ولهٰذا شدد الله جل وعلا العقوبة علىٰ من وصفه بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧﴾ [التوبة].

فإلزام الإنسان نفسه بشيء لا ينبغي له أن يدخل فيه، حتىٰ في الوعود، إلا معلقًا بمعونة الله جل وعلا، أو بمشيئته تعالىٰ، فهؤلاء ما كتبت عليهم تلك الرهبانية؛ بل ابتدعوها وكتبوها علىٰ أنفسهم، يعني ألزموا أنفسهم بذلك طاعة لله، بحسب شريعتهم، قد يكون بنذر، وقد يكون بشيء آخر، لكنهم ابتدعوا وكتبوا علىٰ أنفسهم، يعني ابتدعوا الطريقة، وكتبوا علىٰ أنفسهم ذلك وألزموها به فصار الذنب لهم من هاتين الجهتين.

قوله جل وعلا في الاستثناء: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ كلام ابن كثير فيها واضح لٰكِن تضيف علىٰ الوجهين اللذين ذكرهما أن الله جل وعلا كتب عليهم أصلا رهبانية، يعني نوعًا من الرهبانية، لكنهم ابتدعوا نوعًا آخر من الرهبانية؛ وهٰذا يصدقه الحديث: «لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةٌ، ورهبانيةُ هٰذه الأُمَّةِ الجِهَادُ في

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

سَبيلِ اللهِ».

والله جل وعلا كتب عليهم رهبانيةً من أجل ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها، يعني ما رعوا ما فرضه الله لهم من الرهبانية، ولكنهم ابتدعوا رهبانية أخرىٰ لتقربهم إلىٰ الله جل وعلا، هٰذا وجه.

الوجه الثاني الذي ذكره ابن كثير أنه ما كتبت عليهم لكن كتب عليهم أو أُمروا بابتغاء رضوان الله جل وعلا، وهٰذا التوجيه يحتاج إلىٰ مزيد تأمل لظهور صحته، لكن الأول الذي ذكرت هو ظاهر الآية وظاهر الأحاديث؛ لأن لكل أمة رهبانية، وهؤلاء كتبت عليهم رهبانية فابتدعوا شيئًا آخر، وألزموا أنفسهم به، وتركوا رضوان الله في الرهبانية الأولىٰ التي كتبت عليهم، وهٰذا هو الذي حصل في الحقيقة مع من ترهب من هٰذه الأمة؛ لأنهم إنما ترهبوا وتصوفوا واعتزلوا تشبهًا بأهل الكتاب، فما أشبههم بذلك، بل هٰذه الآية منطبقة عليهم في الحقيقة؛ لأن الله جل وعلا كتب عليهم رهبانية وهي الجهاد في سبيل الله بأنواعه، وذلك لما يحصل به من إرهاب العدو، وإرهاب الشيطان، وإرهاب حزب الشيطان، وهم عدلوا إلىٰ رهبانية مبتدعة لم تكتب عليهم، وتركوا رضوان الله جل وعلا، فما أشبه ما حصل في هٰذه الأمة بما حصل للأمم قبلنا التي ذكر الله جل وعلا خبرها هنا.

قال: ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ يعني ما فرضنا عليهم وكتبنا عليهم من الرهبانية، وإنما ذهبوا إلىٰ شيء آخر، فهٰذه الآية دالة علىٰ ذم البدع والمحدثات، وعلىٰ النهي عن أن يلزم الإنسان نفسه بغير طاعة الله جل وعلا المأذون له بها، ولا يلزم نفسه بشيء لم يكتب عليه حتىٰ من المستحبات، لا يلزم نفسه كما ألزم ذاك نفسه بالصدقة حتىٰ أقسم ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [التوبة]، ثم أخلف ذلك، فالعبد يرفق بنفسه ولا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به.

والعهد مع الله جل وعلا شديد، وكذلك الإلزام وما شابه ذلك، فلا ينبغي للعبد أن يعرض نفسه لإخلاف العهد، وخاصةً مع ربه جل وعلا، ولهٰذا صار نقض البيعة شديدًا من هٰذه الجهة، ولهٰذا صار الأخذ بالأعلىٰ والأشد من العبادات شديدًا؛ لأنه من هٰذه الجهة، وهٰذا له أمثله كثيرة حتىٰ في حياة الناس.. خَفَّفَ اللهُ جل وعلا عنا وعنكم الحسابَ وصرف عنا العقاب، إنه جوَاد كريم.

***

الدرس الثاني عشر

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾

قَدْ تَقَدَّمَ فِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ حَمَلَ هٰذه الْآيَةَ عَلَىٰ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ كَمَا فِي الْآيَةِ الَّتِي فِي الْقَصَصِ وَكَمَا فِي حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عن أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّىٰ حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيه فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ أَمَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

وَوَافَقَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَلَىٰ هٰذا التَّفْسِيرِ الضَّحَّاكُ، وَعُتْبَةُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ، وَغَيْرُهُمَا، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: لَمَّا افْتَخَرَ أَهلُ الْكِتَابِ بِأَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَنْزَلَ اللهُ هٰذه الْآيَةَ فِي حَقِّ هٰذه الْأُمَّةِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ أَيْ: ضِعْفَيْنِ، وَزَادَهُمْ: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ يَعْنِي: هُدًى يُتَبَصَّر بِهِ مِنَ الْعَمَىٰ وَالْجَهَالَةِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ. فَضَّلَهُمْ بِالنُّورِ وَالْمَغْفِرَةِ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ.

وَهٰذه الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ [الْأَنْفَالِ].

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حَبْرًا مِنْ أَحْبَارِ يَهُودَ: كَمْ أَفْضَلُ مَا ضُعِّفَتْ لَكُمْ حَسَنَةٌ؟ قَالَ: كِفْلٌ ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ حَسَنَةً. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ عَلَىٰ أَنَّهُ أَعْطَانَا كِفْلَيْنِ. ثُمَّ ذَكَرَ سَعِيدٌ قَوْلَ اللهِ، عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ قَالَ سَعِيدٌ: وَالْكِفْلَانِ فِي الْجُمُعَةِ مِثْلُ ذَلِكَ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هٰذا الْقَوْلَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ أَلَا فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ أَلَا فَعَمِلَتِ النَّصَارَىٰ. ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ عَلَىٰ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ؟ أَلَا فَأَنْتُمُ الَّذِي عَمِلْتُمْ. فَغَضِبَتِ النَّصَارَىٰ وَالْيَهُودُ، وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ عَطَاءً. قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَإِنَّمَا هُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ

أَشَاءُ».

قَالَ أَحْمَدُ: وَحَدَّثَنَاهُ مُؤَمَّل، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، نَحْوَ حَدِيثِ نَافِعٍ، عَنْهُ.

انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ، فَرَوَاهُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حرب، عن حماد، عن أيوب عن نَافِعٍ، بِهِ وَعَنْ قُتَيْبَةَ، عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ نَافِعٍ، بِمِثْلِهِ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بَرِيد عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَىٰ اللَّيْلِ عَلَىٰ أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا، وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ. فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا فَأَبَوْا وتَرَكُوا، وَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ بَعْدَهُمْ فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمُ الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ، فَعَمِلُوا حَتَّىٰ إِذَا كَانَ حِينَ صَلَّوُا الْعَصْرَ قَالُوا: مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، وَلَكَ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ؛ فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ. فَأَبَوْا، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّىٰ غَابَتِ الشَّمْسُ، فَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هٰذا النُّورِ» انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ.

وَلِهٰذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أَيْ: لِيَتَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ رَدِّ مَا أَعْطَاهُ اللهُ، وَلَا عَلَىٰ إِعْطَاءِ مَا مَنَعَ اللهِ، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أَيْ: لِيَعْلَمَ وَقَدْ ذُكِرَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا: (لِكَيْ يَعْلَمَ). وَكَذَا حطَّان بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لِأَنَّ الْعَرَبَ تَجْعَلُ (لَا) صِلَةً فِي كُلِّ كَلَامٍ دَخَلَ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ جَحْدٌ غَيْرُ مُصَرَّحٍ، فَالسَّابِقُ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٢]، ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الْأَنْعَام]، ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء].

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه،

أما بعد؛ فأسأل الله لي ولكم العلم النافع والعمل الصالح، والقلب الخاشع وأن يرينا الحق حقا، وأن يمن علينا بالاتباع، والباطل باطلا ويمن علينا باجتنابه.

كما نسأله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- من أهل الخير الذين يعينون عليه ويتواصون به فيتعاونون علىٰ البر

والتقوىٰ إنه أكرم مسؤول.

في هاتين الآيتين البشارة العظيمة لهٰذه الأمة بفضل الله جل وعلا المضاعف لها، وبأنهم أُعطوا كفلين من الرحمة ونصيبين من الأجر وحظين من الثواب، وأنهم ميزوا علىٰ أهل الكتاب بهٰذا الفضل، وأن أهل الكتاب إذا اتقوا الله جل وعلا وآمنوا بالنبي ﷺ وتركوا ما هم عليه؛ فإنهم يؤتون أجرهم مرتين، ويكون لهم كفلان من الرحمة والأجر.

في أول الآية قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خاطبهم بهٰذا الإيمان الذي يشملهم جميعًا ممن حقق ما أُمر به في الإيمان، ومعلوم أن الإيمان يشمل الاعتقاد ويشمل القول ويشمل العمل، فهو نداء من الله جل وعلا للذين اعتقدوا بما جاء به محمدٌ ﷺ، وللذين نطقوا بذلك وعملوا به، فأمرهم بتقوىٰ الله جل وعلا والإيمان برسوله ﷺ.

وهٰذا خطاب يشمل أيضًا من آمن من أهل الكتاب، فهم يؤتون أيضًا أجرهم مرتين، ولهم كفلان من رحمة الله جل وعلا؛ لأنهم آمنوا واتقوا وأطاعوا الرسول ﷺ.

وحقيقة الإيمان في لغة العرب طلب الأمن، آمن من الأمن، آمن وأمِن واستأمن كلها من باب واحد، والإيمان الذي هو طلب الأمن قد يكون طلب الأمن عند الإخبار بالخبر، أو طلب الأمن عند الأمر والنهي، من الله جل وعلا الأخبار واجبة التصديق؛ لأنها من عند الله جل وعلا، فالإيمان بها أو طلب الأمن من أثر التكذيب في الدنيا والآخرة، وهٰذا يشمل الغيبيات؛ ذات الله جل وعلا وأسماءه وصفاته وأفعاله وما أخبر عن نفسه العظيمة جل جلاله، ويشمل أيضًا ما أخبر به عن الجنة والنار والميزان والصراط، وما يحدث في يوم القيامة، وما أخبر به عما في السماء وما أخبر به عما حصل في الأرض، كل شيءٍ غيبي، فالأمن يتحقق بالتصديق به، كذلك الإيمان بالأوامر والنواهي، وهو الأمن من غائلة ردها وأنها غير مأمور بها أو غير منهي عنها، فإذا أمر الله جل وعلا بأمرٍ فالإيمان أن تصدّق وتعتقد أن هٰذا مأمورٌ به، وكذلك النهي أن تعتقد وتصدق أن هٰذا منهي عنه، وكذلك أن تأمن غائلة المخالفة، أن تأمن أثر المخالفة؛ مخالفة الأمر أو مخالفة النهي.

ولهٰذا صار الإيمان قولًا وعملًا واعتقادًا، وقول طائفة من أهل العلم؛ من أهل اللغة ومن أهل الشريعة: إن الإيمان في اللغة هو التصديق، هٰذا صحيح أيضًا، لكنه نتيجة؛ لأنه يصدق لطلب الأمن في الدنيا؛ لأنه إذا أخبر بخبر فرده وكذبه، يعني لم يؤمن به ولم يصدقه فإنه لا يأمن أن يبادره المخبر بأذىٰ؛

لأنه كذبه، ومِن عُرف الناس والرجال والعقلاء في الجاهلية ألا يكذب بعضهم بعضا، فإذا كذب أحدهم الآخر فقد أوقعه في نقيصة فلا يأمن بعدها غائلة هٰذا التكذيب.

وكذلك في الأمر والنهي قالوا: الإيمان أيضًا هو التصديق، وهٰذا أيضًا صحيح، لكنه أيضًا تصديق بالأوامر بالنواهي لطلب الأمن فيها، والتصديق في ذاته إذا كان في الأخبار فإن التصديق بها باعتقادها، وإذا كان في الأوامر والنواهي فإن التصديق بها باعتقادها والعمل بها؛ لأن حقيقة التصديق في اللغة راجعة أيضًا إلىٰ هذين القسمين بالخبر باعتقاده وعدم رده، وفي الأمر والنهي بالتصديق به باعتقاده وعدم رده وبالعمل به إن كان هو المخاطب بذاك.

فيدل لهٰذا قول الله جل وعلا في سورة الصافات لما ذكر قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع ابنه: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا ۚ ﴾ جميعًا ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ فجعله مصدقًا للرؤية لما أسلم تصديقًا، ولما تله أيضًا عملًا تصديقًا، وهٰذا في الحقيقة راجع كما ذكرت إلىٰ أن الأوامر والنواهي والأخبار هي كلها من عند الله جل وعلا، فلا بد فيها من تحقيق أمر الله والتصديق بالخبر والأمر والنهي وعدم رده؛ لأن هٰذا من عند الله جل وعلا الذي تجب طاعته مطلقًا.

إذا تبين ذلك فإن من لم يؤمن لم يحقق لنفسه الأمن لا في الدنيا ولا في الآخرة، فهو علىٰ خوف وعلىٰ خطأ وعلىٰ افتراق؛ خوف في النفس وخوف أيضًا في المجتمع وفي من حوله، فالإيمان والأمن اشتقاقًا وأثرًا شيء واحد؛ ولهٰذا قال جل وعلا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] فإنهم قد آمنوا فجعل الله جل وعلا لهم الأمن والهداية في الدنيا والآخرة.

إذا تبين لك ذلك فالله جل وعلا أمر أهل الإيمان بتقواه وطاعة رسوله ﷺ.

والتقوىٰ في القرآن والسنة علىٰ ثلاث مراتب، وهي:

الأول: تقوىٰ الله جل وعلا بالإسلام والتوحيد، والكفر بالطاغوت والشرك، وهٰذه يخاطب بها الناس جميعًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]، يعني اتقوه بالإسلام والتوحيد وبترك الشرك وما يؤدي إليه.

الثاني: تقوىٰ الله جل وعلا بامتثال الواجبات وترك المحرمات.

الثالث: تقوىٰ الله جل وعلا بامتثال المستحبات وترك المكروهات، وترك ما يؤدي إلىٰ المشتبهات

والمحرمات.

وهٰذا النوع الأخير يدخل فيه درجات الزهد ويدخل فيه أشياء كثيرة.

المقصود هنا أن الله جل وعلا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ فأمر بتقواه العامة، وهي تشمل هٰذه المراتب جميعًا، لكن كلٌّ على حسب حاله.

﴿ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ هٰذا الإيمان المراد به التصديق الجازم الذي لا شبهة فيه الذي يقارنه القول والعمل بأن محمدًا هو رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين، وأن ما جاء به حق، وأن رسالته نسخت ما قبلها من الرسالات. والإيمان بالرسول المقصود به الإيمان الشرعي؛ لأن الإيمان في القرآن وليس في اللغة إذا تعدى بالباء فيقصد به الإيمان الشرعي، وإذا تعدى باللام فإن المعنى هو التصديق، كما قال طائفة من أهل العلم؛ كقوله: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ ﴾[العنكبوت: ٢٦]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾ [يوسف] وقوله: ﴿ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١] وفي آيات كثيرة في ذلك، وأما إذا جاء الإيمان معدًّى بالباء فإن المقصود به الإيمان الشرعي، والإيمان بالرسول ﷺ الإيمان الشرعي هو تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرعه هٰذا الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه.

قال سبحانه: ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ (يؤتكم) هٰذه في جواب الأمر: اتقوا... يؤتكم، يعني هي في مقام: إن تتقوا يؤتكم، فتكون مجزومة جوابًا للأمر.

وقوله: ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ ﴾ الكفلان مثنى كفل، والكفل هو الحظ والنصيب، يعني: يؤتكم حظين ونصيبين من رحمته، وهٰذان الكفلان هل هما مضاعف الأجر كقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ ﴾[القصص:٥٤]، أو هما كفلان من الرحمة؛ بمعنى أنهما نصيبان من الرحمة في الدنيا وفي الآخرة؛ أي ليس هٰذا خاصًّا بالأجر ؟ قولان لأهل العلم، والظاهر عدم التحديد بالأجر؛ لأن الرحمة تشمل الأجر وتشمل غيره، فيكون قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ وحديث «ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ...» يكون هٰذا بخصوص الأجر؛ لكن الرحمة أوسع، وإعطاء الله جل وعلا عبده الأجر على ما عمل هٰذا من الرحمة، لكن رحمته أوسع من ذلك.

فهٰذا يدل على أن تفسير من فسر الكفلين هنا بالأجرين أنه فيه قصور، وأن الأولى حمل الرحمة على

عمومها، وأن الكفلين عظيمان لا يعلمهما إلا الله جل وعلا بما في ذلك إعطاء الأجر مضاعفًا.

قال سبحانه: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ النور هنا فسره بعض أهل العلم بأنه هو النور المذكور في سورة الحديد وفي سورة التحريم أنه النور يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾، هٰذا نورٌ يوم القيامة يؤتاه أهل الإيمان ليكون لهم علامة واطمئنانًا، وليجتازوا الصراط وينجوا من الظلمة علىٰ بصيرة ونور؛ لكن هٰذا أيضًا فيه قصور؛ لأنه جل وعلا قال هنا: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾، وهنا (نور) جاءت نكرة في سياق المنة وسياق جواب الأمر فتكون مطلقة وتقييدها يحتاج إلىٰ دليل، كما هي القاعدة عند الأصوليين أن النكرة في سياق الإثبات مطلقة تفيد الإطلاق، وأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، أما الإطلاق فالإطلاق عمومٌ بدلي وليس عمومًا شموليًّا؛ لأن المطلق عام لكنه عام علىٰ وجه البدل، لا علىٰ وجه الشمول، فهو عام يصدق عليه هٰذا أو هٰذا أو هذا، وقد يكون عامًّا يدخل فيه عشر أو عشرون حالة، فالمطلق إذا قُيد صار المراد به حالة واحدة، فعمومه علىٰ وجه البدل، فإذا لم يقيد فإنه يبقىٰ علىٰ إطلاقه، لا علىٰ وجه الشمول ولكن علىٰ وجه البدل.

وهنا نقول في قوله: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾: النور يعطيه الله جل وعلا العبد في الآخرة بنص الآيات المذكورة في سورة التحريم وفي غيرها، وأيضًا يعطيه الله جل وعلا العبد في الدنيا كما دلت عليه آية الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام:١٢٢]، فحينئذ يكون هٰذا النور نورًا في الدنيا أو نورًا في الآخرة علىٰ وجه الإطلاق فلا يقيد؛ لمناسبة قوله: ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾، والكفلان هنا النور في الدنيا والنور في الآخرة، فناسب الفضل بأنه جعل لهم كفلين من رحمته فيشملان نور الدنيا ونور الآخرة، خلافًا لمن جعل ذلك في أحد هذين الحالين.

والنور يكون في البصر ويكون في البصيرة؛ ففي البصر بالرؤية، وفي البصيرة بعلم الأشياء علىٰ الصواب، وإذا كان كذلك فالنور في الدنيا هو نور البصيرة لا البصر، والنور في الآخرة هو نور البصر والبصيرة، وهٰذا من جراء أنهم آمنوا بهٰذا النور وتركوا الكفر والشرك وآمنوا بالرسول ﷺ واتقوا الله، فأعطاهم الله جل وعلا البصيرة في الدنيا والنور والبصر والبصيرة في الآخرة.

وهٰذا يبين معنىٰ قوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء] أن

المقصود هنا عمىٰ البصيرة، لا عمىٰ البصر، فمن كان أعمىٰ البصيرة في هٰذه الدنيا فإنه يوم القيامة أعمىٰ البصر والبصيرة، ومن كان في هٰذه الدنيا نير البصيرة بالإيمان والتقوىٰ فإنه في الآخرة نير البصر والبصيرة، فضلًا من الله جل وعلا ونعمة.

قال سبحانه: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ﴾ المغفرة هنا ترتبت علىٰ تقوىٰ الله جل وعلا والإيمان بالرسول ﷺ، والمغفرة هي الستر؛ ستر الذنوب، والاستغفار: طلبُ ستر الذنب، ومغفرة الله جل وعلا لعباده أنه يستر ذنوبهم، وستر الذنب له جهتان:

الجهة الأولىٰ: ألا يفضح الله جل وعلا العبد بين الناس في الدنيا أو في الآخرة.

والجهة الثانية: ألا يُفيض الله جل وعلا أثر المعصية علىٰ عبده؛ لأن المعصية إذا وقعت في الأرض فلها أثر في العبد، ولها أثر أيضًا في الأرض التي هو فيها، فطلب العباد المغفرة يعني طلبهم ستر الذنوب بعدم الفضيحة بها وبعدم العقوبة عليها.

وهٰذا بخلاف التوبة؛ فإن التوبة ندم علىٰ ما فات وإقلاع عن الذنب والعزم علىٰ ألا يعود في المستقبل، وليس في التوبة هٰذا المعنىٰ الخاص بالاستغفار، ولهٰذا هنا قال: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذكر المغفرة دون التوبة؛ لأنها أعم أثرًا علىٰ العبد فيما فيه مصلحته في دنياه وفي آخرته.

جعلنا الله ممن غفر له وستر ذنبه وعيبه في دنيانا وآخرتنا.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ وهٰذا تعريض باسم من أسماء الله جل وعلا لكي يتعرف العبد بمغفرة الله ورحمته، وهما مذكوران في الآية حيث قال: ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ وقال بعدها: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ فلهٰذا ذكر المغفرة والرحمة، فناسب أن يختم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾، وقوله ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ هنا من حيث الإعراب: غفور خبر للفظ الجلالة، ورحيم خبرٌ ثانٍ، وليست (رحيم) نعتًا لـ (غفور)، إلا إذا اعتبرنا أن (غفور) دالة علىٰ الذات، فهٰذه لا تصلح في كل موضع؛ لأنه قد يكون السياق يدل علىٰ أن المراد الصفة التي يشتمل عليها الاسم، فيكون الأنسب في الإعراب حينئذ أن تقول: خبر أول وخبر ثانٍ، يعني: والله غفور والله رحيم.

قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ ﴾ سمعت ما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون علىٰ رَدّ ما أعطاه الله) فعبر بالتحقق، وهو تعبيرٌ صحيح في أن معنىٰ قوله ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني لأن يعلم أهل الكتاب، وهٰذا كما جاء في قراءة ابن مسعود: (لكي يعلم أهل الكتاب).

و(أن) في ﴿ أَلَّا يَقْدِرُونَ ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، تقدير الكلام: لكي يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون علىٰ شيء من فضل الله. لأن فضل الله جل وعلا ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، هٰذا فضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فقوله إذن هنا: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ ﴾ صار المعنىٰ: لكي يعلم أهل الكتاب، ﴿ أَلَّا يَقْدِرُونَ ﴾ يعني أنهم لا يقدرون.

و(لا) في ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ يسميها كثير من أهل التفسير صلة؛ تأدبًا مع القرآن الكريم، ويسميها أهل النحو والبلاغة زائدة، وليس معنىٰ الزيادة أنها زائدة نقلًا أو زائدة معنًىٰ، حاشا وكلا، وهو التعبير الذي نقله ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير، وهو الأليق في الأدب مع كتاب الله جل وعلا. ومعنىٰ أنها صلة أنها زائدة، لكن هنا الزيادة لتحقيق المعنىٰ، ولهٰذا ابن كثير علىٰ طريقته في أنه لا يورد كل ما يتعلق بالتفصيلات اللغوية عبر بقوله: (ليتحققوا)، من أين أتىٰ بلفظ (ليتحققوا)، ليس مجرد تعبير لعدم فهم اللغة؛ لأن كلمة (لا) هٰذه لما زيدت أو كانت صلة صارت صلتها أو زيادتها لأجل تحقيق الكلام ولأجل تأكيده.

وفي القرآن كثير من ذلك، فهي تأتي في النفي كما ذكر ابن كثير عن ابن جرير، وتأتي أيضًا في الإثبات؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[القيامة: ١] وتأتي أيضا (ما) زائدة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[آل عمران: ١٥٩] يعني: فبرحمة من الله. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾[المائدة: ١٣] يعني: فبنقضهم ميثاقهم.

فالمقصود أن هاتين الكلمتين (ما، لا) دالاتان علىٰ النفي، والعربُ تزيدهما في الكلام إذا أراد المتكلم أن يثبت هٰذا الكلام وأن يؤكده وأن يزيده تحقيقًا.

قال: ﴿ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ يعني علىٰ أي شيء؛ فليس هؤلاء هم الذين يتحكمون في الفضل ويوزعونه كيف شاءوا، إنما الفضل بيد الله بجميع أنواعه؛ بفضل الدنيا وفضل الآخرة، فهو يؤتيه من يشاء؛ قال سبحانه: ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ هو سبحانه صاحب الفضل الأعظم، وصاحب المِنَّة الكبرىٰ، له علىٰ عباده واجب الشكر والثناء والإنابة لما له عليهم سبحانه من أفضال ونِعَم لا تُحصىٰ ولا تعد ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

هٰذا آخر هٰذه السورة سورة الحديد، وهي سورة عظيمة اشتملت علىٰ تمجيد الله جل وعلا في أولها، وعلىٰ فضل الله جل وعلا في آخرها، وله سبحانه الحمد والشكر والثناء.